# ذكرى حافظ وشوقي

ملحق بعدد فبراير سنة ١٩٣٤

من مجلة «أبولو»

خاص بالحفلة التي أقامتها الجالية السورية اللبنانية في
الجمهورية الفضية لتخليد ذكرى المغفور لهما

الشاعرين

محمد حافظ ابراهيم بك و أحمد شوقي بك

بقلم صالح جودت
( عضو مجلس جمعية ابولو )

مطبعة التعاون

obeikandl.com

obeikandl.com

# تصدير

قامت الجالية السورية اللبنانية في الجمهورية الفضية «الارجنتين» بنصيبها في تخليد ذكرى فقيدَيْ الشعر المغفور لهما محمد حافظ ابراهيم بك واحمد شوقي بك ، إذ أقامت حفلة في مسرح الكولون بمدينة بونس ايرس مساء ٢٣ ديسمبر الماضي ، فكانت أروع ما أقام أبناء الشرق من حفلات لهذه الذكرى المجيدة .

وجمعية أبولو تقدم أجل الشكر لأعضاء الجالية — وتخص بالذكر حضرة الفاضل مدير الجريدة السورية اللبنانية ورئيس لجنة تخليد الذكرى — وتسأل الله أن يجزيهم عن العربية خير الجزاء .

# رسالة لجنة الاحتفال

جاءتنا الرسالة الآتية من حضرة رئيس لجنة الاحتفال بتخليد ذكرى حافظ وشوقي في الجمهورية الفضية بتاريخ ٢٧ ديسمبر الماضي :

الى حضرات رئيس وأعضاء جمعية « أبولو » الراقية

تحيات واحترام .

يسرنا ان نبعث اليكم بنسخة من جريدة « لاناسيون » كبرى الجرائد الصباحية في امريكا الجنوبية وبنسخة من جريدة « لاراسون » كبرى الصحف المسائية فيها لتطلعوا في الصفحة الثامنة من الاولى وفي الصفحة الثالثة من الثانية على وصف الاحتفال الكبير الذي اقمناه في ٢٣ الجاري في تياترو كولون الاعظم لتكريم ذكرى الشاعرين المبكيين حافظ وشوقي بمناسبة مرور سنة على وفاتهما وتجدون وصفه ايضاً في العدد الذي صدر صباح ٢٦ الجاري من « الجريدة السورية اللبنانية » وفي الاعداد التي تليه .

ثم ان لنا رغبة نبديها في هذا المجال وهي : أن لجنة تكريم الشاعرين نفّذت قراراتها بصنع صفيحتين من البرونز لتوضع الواحدة على قبر شوقي والثانية على قبر حافظ ، وبصنع مجموعتين

قد كاتبتين تحفظان فى دار الآثار والكتب فى القاهرة . وكنا نحن قد كاتبنا وزارة المعارف المصرية طالبين اليها ان تتكرم بتعيين لجنة تستلم ما نرسله بطريقة تتفق مع الدوافع التى حـدتنا الى ذلك ولم نستلم منها جواباً ، فهل لكم ان تتلطفوا بالاهتمام بهـذا الامر فان الصفيحتين والمجموعتين جاهزة .

فى تاريخه بعثنا برسالة كهذه الى الزميل الراقى صاحب (الهلال) الاغر فاذا رأيتم ان تتعاونوا معه شكرنا لكم هذه الغيرة التى باتت معروفة عن اعضاء جمعيتكم الزاهرة .

وتفضلوا بقبول فائق الشكر والاحترام .

* * *

وجمعية أبولو — التى قامت بواجبها نحو الشاعرين — لن يفوتها الاهتمام بما ورد فى هـذه الرسالة ، ذاكرة لأعضاء الجالية الكريمة عملهم الذى يسجله لهم التاريخ .

# برنامج الحفلة

## على مسرح الكولون

### رفع الستار الساعة العاشرة تماماً

(١) اللحن الوطني الارجنتيني ، توقعه فرقة دائرة الامن العام الموسيقية .

(٢) خطاب افتتاحي للسيد موسى يوسف عزيزة رئيس اللجنة ( ١٢ دقيقة )

(٣) خطاب العيد الوطني للدكتور كرلوس بروخمان ( ١٥ دقيقة )

(٤) خطاب السيد سيف الدين رحال باللغة العربية ( ١٢ دقيقة )

### فترة استراحة

(١) اداجيو ، قطعة موسيقية لبتهوفن توقّعها الفرقة السابقة الذكر

(٢) خطاب الدكتور دياغو اورتيس غروغنات ( ١٥ دقيقة )

obeikandl.com

(٣) خطاب السيد عبد الحميد عبد الوهاب باللغة العربية ( ٨ دقائق )

(٤) خطاب الدكتور ادواردو ادولفو اورتيس ( ١٠ دقائق )

(٥) خطاب الدكتور ادواردو انخل غراسيا ( ١٠ دقائق )

فترة استراحة

(١) الفجر — عبادة الآلهة ، قطعة موسيقية للفرقة الآنفة الذكر

(٢) قصيدة عربية للسيد إلياس قنصل ( ٨ دقائق )

(٣) خطاب الدكتور فرنسيسكو رايبيجي ( ١٥ دقيقة )

(٤) خطاب لنائب مدير جريدة لاراسوان السيد كارلوس شافاري ( ١٥ دقيقة )

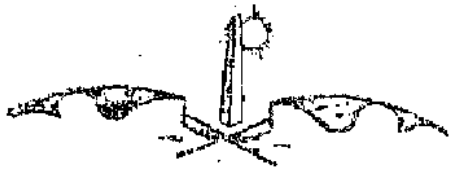

obeikandl.com

بعض خطباء حفلة كولون وهم من اليسار : السادة الياس قنصل ، الدكتور ادواردو ادولفو أورتيس ، مومى يوسف عزيزة ، الدكتور دياغو اورتيس غروغنات ، كارلوس اشاقارى ، الدكتور ادواردو انخل جراسيا ، عبد الحميد عبد الوهاب .

# وصف الحفلة

احتشد فى مسرح الكولون أكثر من سبعة آلاف نسمة من كبار رجال الجمهورية وأعيان الجالية السورية اللبنانية ، جاءوا يشتركون فى القيام بواجبهم لتخليد ذكرى شاعرى الشرق المغفور لهما حافظ وشوقى . وغصّت الشرفات بكريمات العقائل أتين يدفعهن حنين العروبة إلى المساهمة فى تخليد الشاعرين .

وقد تفضل فخامة رئيس الجمهورية الجنرال فوستو فلبّى دعوة الجالية وحضر معه كبار رجال الدولة من الوزراء والنواب والاعيان وممثلى الدوائر الرسمية .

وكانت الصفيحتان البرونزيتان — المشار إليهما فى الرسالة الواردة الينا من حضرة رئيس لجنة تخليد ذكرى الشاعرين — معروضتين فى أحد أبهاء المسرح ، وقد حُفرت على الأولى باللغتين العربية والاسبانية ما يلى :

« ذكرى تكريم ابناء يعرب فى الجمهورية الفضية لشاعر النيل محمد حافظ ابراهيم »

وعلى الثانية :

« ذكرى تكريم أبناء يعرب فى الجمهورية الفضية لأمير الشعراء أحمد شوقى بك » .

وترى صورة الثانية منشورة بالصفحة الاخيرة من هذا الملحق كما عرضت اللجنة لوحتين ليوقّع عليهما الحاضرون وسترسلان إلى مصر لتعرض احداهما بدار الكتب والثانية بدار الآثار . ثم وزّعت على الحاضرين رسوم الشاعرين ، والمداليات التذكارية المربوطة بأشرطة تمثل العلم الارجنتينى ، وعلى أحد وجهى المدالية رسم فتى يمثل إلهة الشعر وعلى الآخر عبارة تذكارية عن ليلة الحفلة .

وعند تمام الساعة العاشرة بدأت الحفلة بالنشيد الوطنى الارجنتينى ثم وقف السيد موسى يوسف عزيزة فألقى الخطاب الافتتاحى باللغة الاسبانية مرحّباً بفخامة رئيس الجمهورية ورجاله شاكراً لهم هذا العطف ، وانتقل إلى التحدث عن الشعر العربى ونحن نورد هنا بعض ما جاء فى خطابه :

« فى مدرسة المتنبّى نشأ شوقى فكان شعره قريباً من شعره ، وقد تلقّى دروسه فى باريس فأثّرت فيه الحياة هناك ، وكان من هذا المزيج ذلك الرحيق المسكر الذى تضمه أبيات شوقى الخالدة — أما حافظ فقد كان شاعراً شعبياً استهوى الجماهير وكان شعره أقرب إلى أذهانهم ولطالما هزهم بقصائده العامرة التى كانت تعبر عن أمانيهم بكل

دقة وأمانة ، فلاعجب إذا رأيناه محبباً اليهم إذ وجدوا فيه بوقاً صادقاً يرسل صوته فى كل ساعة تكون فيها حقوقهم تحت الخطر — بيد أن الشاعرين أثّرا فى النهضة العربية كما أثّر فى النهضة الفرنسية روسّو وفولتير » .

وعقبه العين الوطنى الدكتور كولوس بروشمان بخطاب جاء فيه أن حافظ وشوقى هما ممثلا الشعر العربى فى هـذا العصر ، وقد كان حافظ أمير النثر وشاعر النيل المحبوب يحلم بإنشاء أمة عربية عظيمة على أسس الأدب الحديث ، وكان شوقى شاعراً رقيقاً يقرض الشعر وحياً ، وما قصيدته الأخيرة التى رثى فيها زميله حافظ قبل موته بأسبوعين إلا برهاناً قاطعاً على أن شوقى لم ينظم إلا ما كان إلهاماً » .

وتلاه الأديب سيف الدين رحال بخطاب شائق جاء فيه على لمحة من حياتى الفقيدين ، ومن حديثه :

« حافظ وشوقى خلاصة أجيال الأدب العربى وزبدة الروح العربية الصافية ، وقد شبههما أديب أريب بأبى معاذ بشار بن برد والحسن بن هانىء الشهير بأبى نواس ، وهو تشبيه إن صحّ بعضه من حيث تجديدهما دولة الشعر فانه فى جملته بعيد الشبه من الوجهة الخلقية والنفسية ، فان حياة كل من شاعرىْ عصرنا غنية بما فيها من مكارم الشمائل وجمال الطبع وحسن التطبع » .

وتكلم بعده الدكتور دياغو أورتيس غروغنات ومما قاله : إن أحمد شوقي بك باسلوبه العالي الأرستقراطي كان شاعراً حكيماً بينما كان حافظ بأسلوبه السلس وروحه الشعبية شاعر الشعب الخاص حتى لقّب بشاعر النيل .

ثم قال : بينما نرى العالم الغربي ماكفاً على المادة الحقيرة يتنازع عليها نرى الأمة العربية دائبة على البحث عن مروج الروح لأنها علمت — وقد عركتها الأيام — أن الروح فوق المادة ، وأن تلك خالدة وهذه فانية ، فعلى الأمم أن تكرّم من خدموها سواء أبالسيف أم بالقلم .

وقام السيد عبد الحميد عبد الوهاب فألقى خطابا عن تاريخ الأمة العربية وتاريخ حياة الفقيدين ، وتبعه الدكتور ادواردو أدولفو اورتيس بخطاب باللغة الاسبانية في نفس الموضوع .

ومن ثم أعقبهما الدكتور ادواردو غرسيا فذكر ما للجالية السورية اللبنانية من مودة في قلوب سكان هذه البلاد وتطرّق إلى ذكرى الشاعرين فقال إن الامة التي ليس فيها شعراء صائرة إلى الاضمحلال لا محالة .

وبعد أن عزفت الموسيقى لحن « فجر الآلهة » ألقى الشاعر إلياس قنصل قصيدة عامرة نجتزىء منها هذه الأبيات :

إن كان في بحر الحياة مَنائرٌ تهدي ، فتلك قصائد الشعراء
كم آية غرّاء منها قد جلت ما ليس يجلوه شعاعُ ذكاء
من روعة اللطف الخفيّ جمالها وجلالها من مسحة الايحاء
تلج الفؤاد فتسترق شعوره بطلاوةٍ هي وقعُ الاستهواء
ويكاد يحسب أنه في عالمٍ خالٍ من الاصباح والامساء
روح الآله تموج فيه كأنها هامت بسحر الآية الغراء

ومنها :

والشرق كان ولم يزل بالرغم من حقد القضا وسياسة الدخلاء
جسماً تمثل رأسه لغة بها نزل الكتاب على أبي الزهراء
فاذا شكا عضوٌ فداحة رزئه تشكو لذاك بقية الأعضاء
والموت يعجز أن تمس ضروفهُ ما أوجدته قرائحُ الشعراء

ثم تكلم الدكتور فرنسيسكو راينيلي الابن قائلاً إن ذكرى الشاعرين يجب أن تكون لتمكين الأواصر الودية بين الأمة العربية والأمة الارجنتينية .

وتلاه السيد كرلوس الشافاري بخطاب جاء فيه أن احتفال هذه الليلة ليس لذكرى شاعرين كبيرين فحسب بل هو احتفال لتكريم أمة بأسرها ممثلة في آدابها وثقافتها ، ثم ألقى قصيدة رائعة هذه ترجمتها :

أيها السوريون الكماة !

الضاربون تحت سماء هذه البلاد الحرة !

الحاملون الينا أساطير الشرق المقدسة وأناشيده القديمة العذبة الخالدة !

المازجون بدمنا دم أمة نجيبة مجيدة ، أمة عربية ذات أخلاق كالراح كلما تعتقت عذبت وزكت !

الملاقون الاشغال والاتعاب بسواعد مفتولة لا يعرف الوهن اليها سبيلا ، وبقلوب جبارة لم تخفق الا للعصب والشرف والوطنية ! حيّاكم الله من رجال جبابرة تخفون مايلتهم جوانحكم من نيران الشوق والحنين الى وطنكم لتظهروا سعداء في هذه الارض كما لو كنتم في وطنكم مهبط الوحي ومهد الجمال !

يدفعكم إلى ذلك وفاؤكم المشهور عنكم وعرفانكم الجميل وتقديره.

أيها السوريون الكماة الضاربون تحت سماء هذه البلاد !

يا أبناء الغزاة والفاتحين !

ان للآلام حدوداً

ولا يستطيع الظلم مهما كان قوياً أن يطفىء في الصدور أنوار الأمل الجميلة.

أجل ! ان ساعة الظالمين ستفدو قريبة وستشتبك الحراب في ساحة حرب طاحنة يخرج بعدها الحق رافع الرأس موقعاً أناشيد الفوز والظفر على قيثارة العدل والحرية .

أيها اليعربيون الكماة!

الضاربون تحت سماء هذه البلاد الحرة !

أحيّيكم تحيةً عاطرة كنسيم بلادكم ، أحييكم باسم بلادي هذه وطنكم الثاني .

## من جمعية أبولو

### إلى الجالية السورية اللبنانية بالأرجنتين

يا أبناء المهجر !

ما كان لمصر أن تشكركم ، فلقد قمتم بما وجب عليكم نحو الشاعرين الفقيدين ، والشعراء ملكٌ للانسانية لا يختصّ بهم بلدٌ دون آخر ، والأدب مشاع للجميع ، فان كرمتم أهله اليوم وقصّر غيركم فقد انفردتم دونه بالفخر وسيحمي التاريخ ويقول لأبنائه إنكم سطرتم صحيفة من المجد لن يبليها تتابع الأجيال .

على أن لنا ولكم من العزاء ما ترك الشاعران من أثر في الحياة

ناطق بذكراهما — لنا ولكم من العزاء ما نلمح من بوادر النبوغ في أدب الجيل الحاضر وسمات العبقرية في شعرائنا الحديثين في أطراف الشرق وفي أرضكم الزاهرة .

وجمعية أبولُّو تُحيِّي فيكم هذه الروح النبيلة . وتسأل الله أن يوفقنا جميعاً لما فيه الخير للأدب وأهله والسلام عليكم ورحمة الله .

صورة الصفيحة البرونزية المعدّة لتوضع على قبر شوقي وقد صُنعت مثلها لقبر حافظ

# القصيدة في شعر المتنبي

ملحق بعدد مارس سنة ١٩٣٤

من مجلة « أبولو »

( وهي المحاضرة التي ألقاها الدكتور أحمد زكي أبوشادي سكرتير « ندوة الثقافة » في نادي نقابة الصحافة بالقاهرة يوم الجمعة ١٦ فبراير سنة ١٩٣٤ )

مطبعة التعاون

obeikandl.com

# الطبيعة في شعر المتنبي

لا أعرف شاعراً مطبوعاً لم تكن له بالطبيعة صلة قوية. وقد لاحظت أن النقاد قلما يتناولون هذا الموضوع بالبحث والتمحيص ووجدت أن هذه الناحية في شعر المتنبي خاصة أغفلت أي اغفال ولما كنت أعد المتنبي شاعراً عظيماً فقد استصوبت أن أعالج في هذه المحاضرة ناحية الطبيعة في شعر المتنبي

لا أخفي عن حضراتكم أن المتنبي لا يتمتع بين نقاد الغرب بمثل القدر الأدبي الذي حباه به نقاد العرب ، وكثيرون من المستعربين يفضلون عليه أبا نواس وأبا العتاهية ، ونحن لا نجهل أن أبا العلاء المعري — وهو على رأس من يقدرون المتنبي — عد أبا الطيب كما عد أبا تمام مثال الحكيم ، وعد البحتري مثال الشاعر الحقيقي .

ولكن الرأي السائد في العالم العربي الآن هو رأي ابن خلكان وهو أن شعر المتنبي برغم هفواته يمثل الكمال الشعري ، وهو رأي يجاريه فيه المستشرق فون هامر ، ولكن يخالفه — كما أسلفت — جمهرة المستشرقين وفي طليعتهم دي ساسي وبوهلن وبروكلمان ونكلسون . بيد أن أولى الناس بالحكم على المتنبي هم أبناء لغته

من نقدة الشعر المجيدين ، وهذا ما اعترف به نكلسون ، خصوصاً وتقدير الجمال مسألة نسبية على حد تعبير فولتير ، والتجاوب الوجداني دخل عظيم في تذوّق الجمال الفني .

وانى أعلم أن المعاهد العربية العصيمة تضع المتنبي في ذروة الشعر العربي ، فحتم عليها إذن — إذا آمنت بنظريتي عن صلة الشاعر بالطبيعة صلة وثيقة — أن ترحّب بهذا التوجيه الى دراسة الطبيعة في شعر المتنبي

ولا أنكر أن إعجاب أدباء العرب بالمتنبي يرجع في الغالب الى شيوع الحكمة وجزالة الخيال وغرابة المعاني وقوة الألفاظ في شعره ، ولكني أُعجبُ به لأكثر من هذا — أُعجبُ به لمعانيه الضمنية الكثيرة التي ينمّ عليها اكتفاؤه برموز قليلة ، وهذا الشعرُ الضمنيّ غالبٌ في آثار اليابانيين بصفة خاصة

والشعرُ في صميمه يخاطب نفوسنا الشاعرة قبل نفوسنا المفكّرة فاذا لم تكن مشاعرُنا مرهفةً ومتأهّبةً للتجاوب معه ضاع جماله بيننا ولم ندرك من جوهره شيئاً . وانّ المتعمق في تأمّلاته بشعر المتنبي ليجد فيه من روح الشاعرية المستترة كنزاً لا يفنى ، وأما الذي يكتفي بظاهر ألفاظه فسيفوته حتماً الكثير من دقائق الشاعرية في شعر المتنبي .

ليس كلُّ شعرٍ يتحدث عن الطبيعة ، فكم من نظم صناعى يتطفل عليها أو يتكلم عنها تقليدياً دون أن يكون للشاعر أى إيمانٍ خاص بها .

شتّانَ مثلاً ما بين وصف البحترى وأبى تمام وابن حمديس للطبيعة وبين الكثير من المنظوم الصناعى الذى يحوم حولها كما يحوم الغزلُ الصناعىُّ حول مَراتع الآرام ! فالوفاءُ للطبيعة عنصر أساسىٌّ لهذا القسم من أقسام الشعر ، كما أن الصدق فى الاحساس سواء أكان مباشراً أم متمثّلاً شرطٌ من الشروط الأساسية لكمال الشعر .

ولابدَّ لنا قبل تناول الطبيعة فى شعر المتنبى من الاشارة الى الصُّوَر المختلفة لتناول الشعراء موضوع الطبيعة ، ومأستشهد بما فى متناولى من أقرب النماذج الىَّ :

(١) فمن صور التجاوب للطبيعة الفرحةُ الساذجةُ بها كفرحة الأطفال التى لا يمتزج بها التفكير ولا المعانى العميقة ، وهذا مألوفٌ عادةً فى الشعر القديم السهل ولكنه معهود كذلك فى الشعر العصرى لأن الطبيعة الانسانية واحدة وصورها تتكرر فى شتى العصور . مثال ذلك هذه الأبيات عن « عُرس الأصيل » :

غنّى الأصيلُ فقمتُ أرقبُ عُرسَه
قبلَ التّفرّقِ في المساءِ الداني
فاذا الأشعّةُ راقصاتٌ مثلما
رقصتْ لتلعبَ بالقلوبِ غواني
يتموّجُ الماءُ الطروبُ وتَزْدَهي
ونباتُها عجباً على الأغصانِ
واذا المروجُ عساكرٌ أعلامُها
خُضْرٌ ، تهزُّ أسنّةَ المُرّانِ
واذا العروسُ الشمسُ بين زوارقٍ
هُنّ السحابُ لبسنَ ثوبَ حِسانِ
واذا السماءُ بحيرةٌ ترنو لها
عينُ الطبيعةِ والجمالُ الهاني
في معرضٍ صُوَرُ الوجودِ ضحوكةٌ
فيهِ تُشاطِرُ صفوَهُ المتفاني
وأمامَه الدنيا على عزْفِ الهوى
سِرّاً وجَهْراً في أحبِّ زمانِ !

فهذا شعرٌ غاية في البساطة ، وأىّ طفل شاعر النفس يمكنه

أن يردد هذه الفرحة بل ما هو أبعد منها خيالاً ، واذا كان بين الأدباء من يراه أدق من هذا المستوى فرجع ذلك الى التعوّد على الكثير من المنظوم السطحي الذي يُنسب زوراً الى الشعر وما هو من الشعر في شيء .

(٢) التعلق بجمال الطبيعة المادّي ، وهو حبٌّ لها توجيه العين فلا يتغلغل تغلغلاً صوفياً ، هو حبُّ الطبيعة لذاتها في الحقل والزهرة والسماء والنهر والبحر وغيرها من مظاهرها وأجزائها ، فهو تعلّقٌ مباشرٌ بها لا يتعدّاها لأيّ معنى أو الهام وراءها : مثال ذلك هذه الابيات في « بسمة الطبيعة » إذ يستهلّ الربيعُ :

فضحَ النّوْرُ حُبَّه بين عطْرٍ
مُسْتَحَبٍّ وبين نُورٍ أدامَهْ
مِنْ زواهي التفّاحِ في الزّهَرِ الرّا
قصِ فوقَ الغصونِ يُهْدِي سلامَهْ
مِنْ ألاعيبِ طيرهِ الصادحِ الحا
نِي على إلفهِ يُناجِي غرامَهْ
من وُثُوبِ الفَراشِ تَشْوَى من الشّهْـ
ـدِ ولم تَخْشَ أن تفوتَ السلامَهْ !

وهذا اللون من الشعر قريب من اللون الأول ولكنه ألصق منه بمادة الطبيعة ، وفيه افتتان ظاهر بنَوْر الربيع ونُوره وبغصونه وطيره وفراشه ، وهو افتتانٌ بها لذاتها .

(٣) استعارة الطبيعة مادةً للمجاز والخيال والتصوير . وهذه الاستعارة مألوفة فى كثير من الشعر قديمه وحديثه على السواء . وهذا مشهود بكثرة فى الشعر العبرى وفى شعر هومر وفرجيل وشعر ابن خفاجة الاندلسى . مثال ذلك تشبيه فرجيل لعمال قرطاجنة فى دأبهم بالنحل المجدّة فى خليتها . ومثاله أيضاً هذه الأبيات التى يحثّ بها الشاعرُ على التفاؤل :

تَبَسَّمْ للحياةِ وكُنْ سَبُوحاً
على غمراتها مثلَ السَّقِيِّ (١)
وكنْ كاللوتَسِ (٢) الضاحى هنيئاً
وإنْ لم يَنْمُ فى ماءٍ نَقِيِّ
تَعوَّدَ حظَّه وأضاءَ زهراً
وعاش بنعمةِ الحُرِّ التَّقِيِّ (٣)

---

(١) السقى : هو نبات البردى ( papyrus ) (٢) اللوتس النيلوفر، والضاحى : البارز للشمس (٣) أى غير طفيلى على نبات آخر

فتعشقه العيونُ بلا سكون (١)

وتهتمُ بالحنينِ المشرقِّ (٢)

وما سرُّ الحياةِ سوى احتمال

سواءٌ للهنيِّ والشقيِّ

فالشاعر هنا اتخذ من الطبيعة مادةً لينوّه بها عن ايمانه بالتفاؤل، وقد أسعفته هذه التشابيه فى بلوغ غايته التى تعمداها الى غرض آخر وإذن فالطبيعة هنا أداة وليست غاية

(٤) استغلال الطبيعة كأرضيةٍ لصورةٍ يرسُمها الشاعر أولعاطفة يعبّر عنها ، كما هو حال شعراء القصص وإن كان الشعراء القصصيون الحديثون أمثال تنيسون توسّعوا فى ذلك كثيراً . فان استغلال الطبيعة بهذه الصورة يساعد على ابراز القصة أو الموعظة أو الحالة التى يصوّرها الشاعر والمقصود اليها بشعره فى مظهر بديع .

مثالُ ذلك هذه الأبيات عن « البحر الصاخب » حيث لم يُعنَ الشاعر المصرى بالبحر لذاته فى أى غرض من الأغراض المتقدمة

---

(١) بلا انقطاع . (٢) اشارة الى شروق الشمس .

obeikandi.com

وإنما اتخذه مشهداً تتجلى أمامه العظات التي أرادها الشاعر أقوى التجلي لأبناء قومه ؛ مذكراً إياهم بماضيهم المجيد مستثيراً نخوتهم لتحرير بلادهم :

أرسلتُ مِنْ نظرى سؤالَ تعجُّبِ
فتدفَّقَ البحرُ المُثيرُ هديرا
أبداً يُهاجمُ شطَّه متحمِّساً
فيخالُه الرائى المجهولُ قريرا
وهو المثابرُ في بيانِ رسالةٍ
للجيلِ تُوقظُ غافلاً وضريرا
مِنْ سالفِ الأممِ التي اعتزَّتْ به
في الفتحِ واعتمدتْ عليه دُهورا
يحكى رواتَها ، ويرفع صوتَه
فينا ، يؤمِّل أن يُثيرَ مثيرا
متتابعَ الأمواجِ وهى مقالُه
خطَّتْ لألبابِ الأنامِ سُطورا

أنظرْ صحى البرّاقَ مِنْ أمسٍ بها
حيناً ، وآلاماً عبسْنَ كثيراً

قد كان يُحسَبُ في قديمِ ضيفِنا
فإذا به أضحى يُعَدُّ أسيراً

لولا بقيةُ نخوةٍ غلاّبةٍ
فيهِ وفطرةُ مَنْ يعيش خطيراً

يأبى سوى أرضِ المشارقِ حضنَهُ
ويظلّ يسألُها الوفاءَ نصيراً

لا أن يُملّك للمُغيرِ المعتدي
من شاسعِ الجُزُرِ الصِّغارِ صغيراً

قومي ! لو انتبهتْ مشاعرُكمْ الى
رُسُلِ الحياةِ لنلتمو التقديراً

مِنْ أمسِكم وغدٍ ، ومن يومٍ لكم
كاليومِ حيث غدا المُجِدُّ أميراً

والمستميتُ لكى يحقّقَ واجباً
والحافظ الخُلُقَ الكبيرَ كبيراً
لا تيمموا وعظى ! فحسبى أن تروْا
وَعْظَ الجمادِ ، فما يُعَدُّ حقيراً !!

(٥) شعر التداعى والمشاركة بحيث لا يستغنى الشاعر عن ذكر مشاهد الطبيعة فى شعره لأن الموقف التاريخى الذى يصفه أو الحالة التى يعالجها أو ذكرياته الخاصة تستدعى ذلك . وهذا ملحوظ فى شعر السير ولتر اسكوت التاريخى وفى شعر جولدسمث عن «القرية المهجورة» وفى اشعار أخرى شهيرة ، وفى هذا المثال الآتى من الشعر المصرى فى وصف مونّا بايفا (Monna Paiva) الراقصة الفرنسية الحسناء التى ذهبت الى اليونان لتزور البارتنون فما وافت أعلاه وأخذ جماله منها مأخذه حتى انتزعت ملابسها ورقصت عارية فوق جبال الجمال والفنّ وسط الهواء السماوى الذى لم تلوّثه أنفاس الشهوة البهيمية ، وأشيع حينئذ أن حكومة اليونان شكت الراقصة الشهيرة الى حكومتها :

بَرَزْتِ بفنِّكِ يا غانيَة
فللفنِّ رقصتُكِ الغاليَة

مـعطّرةً مِن أريجِ الجبالِ
مجـدّدةً المُـهـجِ الفانيـهْ

مزوّدةً مِنْ معـانى الجمالِ
ومِنْ طُـهْـرِ آلهةٍ رانيـهْ

خلعتِ لذّاتِـها الاحتشامَ
وأبرزتِ حِليتَكِ الخافيـهْ

فمن حقّـها أن يسود الغرامُ
وأن تُسعدَ القبلُ الدانيهْ

مِن النورِ والأثرِ المُزْدَهِى
برقصتكِ الحُرّةِ الزاهيهْ

ومن نظراتِ السحابِ المريع
يَودُّ البقاءَ ولو ثانيـهْ

ومِنْ بسماتِ الشعاعِ البديعِ
يذوبُ بأنواركِ الـلاهيـهْ

ومِنْ عَجَبٍ شِمْتِ هذا الجمالَ
يَرُدُّ مُـنى الشهـوةِ الغاويهْ

وأنسيتِ أنّ الهوى والسؤالّ
مُشَاعَانِ في العُمْرِ الخالية
– وآثارُها حولكِ الخاشعاتُ –
كذلك في الصُّوَرِ البالية
وفي خافقاتِ الجمادِ الصَّمُوتِ
وأشواقهِ الجمَّةِ الظامية
فلا تغضبي إنْ شكاكِ «الهداةُ»
فذلك كي تقتدى راضية
وما هو الأعتابُ الهُوَاةِ
فليتكِ كنتِ لهم داعية!

فتداعى الخواطر في هذا الموقف الوصفي الذي يتصل بالطبيعة اتصاله بالتاريخ دفع الشاعر الواصف المداعب الى أن يخص الطبيعة بجزء غير يسير من هذه الأبيات .

(٦) شعر الطبيعة الوصفي ، حيث تتّجه عناية الشاعر ومَشاعره الى مشاهد الطبيعة نفسها وصفاً خالصاً . ومن هذا القبيل قصيدة طمسون الموسومة « الفصول » . واذا جاءت سيرة الانسان في هذا

الشعر فهي سيرة عرضية لأنّ اهتمام الشاعر موجّه الى المشاهد لا الى الموصوف ، وان اختلفت أساليب المعالجة لهذا اللون من الشعر بين شاعر وآخر اختلافاً عظيماً . مثال ذلك هذه الابيات التصويرية للمساء في الصحراء :

دنا الليلُ والصحراءُ في روعةٍ له
وإنْ لُجّتْ في راحةٍ وسُكونِ
ولم يبقَ من شمسِ الغُروبِ ونُورِها
سوى لوعةٍ في صفرةٍ وحنينِ
تُقبّل كثبانَ الرمالِ ، وكلُّ ما
تُقبّلُ في وجدٍ ويأسٍ حزينِ
غزتْها جنودُ الزنجِ والوقتُ مسعفٌ
وكم داولتْها في أُلوفِ قرونِ
هو الوقتُ لا يَرعى جمالاً برحمةٍ
وكلُّ سعيدٍ عنده كغبينِ
دنا الليلُ والشمسُ السخيّةُ أخلفتْ
حرارتُها موتاً وبُخلَ ضنينِ

openkamal.com

وأقبلَ قُرُّ الليلِ قبلَ مجيئهِ
فيا لخؤونٍ سابقٍ لخؤونِ
تَهاربَ منه أهلُها وتجمَّعُوا
على النارِ مثلَ العابدين لدينِ
ومَدُّوا الأيادي السائلاتِ نوالَها
فنادتْ عليهم في لسانٍ مُبينِ
ووزَّعتْ السحرَ الذي يرجُونه
حياةً وإيناساً وأمنَ أمينِ
تكادُ العيونُ الناظراتُ لهيبَها
تناوَلُ منها ذُخرَها لسنينِ
وتَبخلُ حتى بالدخان يفوتُها
وتُؤخَذُ من ألوانها بفنونِ
كأنّ بها للشمسِ رُوحاً تنوَّعتْ
وقد سُجِنَتْ لكنْ كغيرِ سجينِ
وهل دانت الصحراءُ إلا لشمسها
جماداً وحيّاً قبلَ جودِ عيونِ

كأنّ تـلالَ الرّمـلِ كنزٌ أشعّةٍ
من الشمسِ فاعتزّت بكلّ ثمينِ

ففي هذه الأبيات تصوير شامل للمساء في الصحراء ووصف لبعض سالكيها حيث جلسوا حول نارهم يتدفأون . واذا كان الوصف مقترناً بشيء من الاحساس الوجداني ، فهو شبيه بالروح التي يبثها المصور في لوحته تُلمح فيها ولا تستقل عنها .

(٧) المقابلة بين الطبيعة والانسان ، وذلك باظهار عظمة الأولى وضعف الانسان أو حاجته اليها وحنينه الى الاندماج فيها ، كما نجد في هذه الأبيات :

وأحِسُّ أني في اندماجٍ دائمٍ
بالكونِ ، والكونُ العظيمُ حياتي

أتأمّلُ الساعاتِ في أجرامهِ
وكأنني متأمّلٌ مرآتي

وأنالُ عطفاً من جميلِ حنانهِ
يَسْري الى روحي بغيرِ فَوَاتِ

حِسٌّ خفيٌّ لستُ أدركُ كنهه
وكأنما هو معجزُ الآياتِ

بلغ الضميرَ ، وكان خيرَ مؤذِّنِ

باللهِ في ملكوتهِ لحياتي

( ٨ ) اظهار قسوة الطبيعة وعدم مبالاتها بالانسان كما نرى في هذه الأبيات من قصيدة رثاء :

إنْ أنسَ لا أنسَ الوداعَ وحرقةً

في النفسِ أورثتْ الجنانَ ذهولا

فسخطتُ مِن غدْرِ الطبيعة ناسياً

سُنَنَ الطبيعةِ والحياةَ الأولى

تجرى الدموعُ الخافياتُ بخاطرى

وبكلّ احساسى هوًى مبذولا

وأقلّبُ الطرفَ الحزينَ فما أرى

الاَّ الورَى والموتَ والترحيلاَ

( ٩ ) تناول الطبيعة تناولاً علمياً في الشعر كما تجد في هذه الأبيات عن « جنة النحل » :

حيِّ الجمالَ بدولةِ الأزهارِ

واسمعْ روايةَ نحلها الزوَّارِ

وفِتانَ أشجارَ الربيع كأنّما
طُرَفُ الوحيق ذوائب الأشجار
مِن كلّ لابسة النضار توشّحت
بفواتن الأصباغ والأنوار

وافتّنت بملاحِل من عسجدٍ
ومُرَصّعات خواتم وسِوار
جادت بها الأمُّ الطبيعةُ مثلما
أرضت مَلاحِسُها صُنّى آذار

رشفت من الزهرات أعذب شهدها
وتدثّرت بدقائق النوّار
وكأنّ محاولَ الضياء إزارُها
لِتَنوّع الألوان والآثار!

(١٠) عطف الطبيعة وتجاوبها ، والتعبير عن ذلك يختلف حسب أمزجة الشعراء اختلافاً عظيماً . وقد يُتاح لشاعرٍ في ظروف نفسية متباينة أن يشعر مرة شعوراً معيّناً كما يشعر مرة أخرى بعكسه تماماً. ومن هذا القبيل الابيات الآتية عن الطبيعة :

زُرْتُها أشكو إليها لوعتي
مِنْ جُحودٍ نالني مِنْ زَمَني

فاكفهرَّتْ في اكتئابٍ سُحْبُها
ثم صاحتْ صيحةَ الممتَحِنِ (١)

وتَجلَّت بعدها في بسمةٍ (٢)
تَبْعَثُ السِّحرَ لِلُبِّ الفَطِنِ

هزأتْ بالجهلِ حتى أخجلتْ
نظرتي للعالَمِ الممتَحِن

وكأني مذنِبٌ في عُرْفِها
فهي أمي ، وهي مَنْ تُلْهِمُني

مَوْئِلي في ظِلِّها أو نُورِها
وهي مَنْ في عَطْفِها تُنْعِشُني

كيف أشْجَى وهي حولي دائماً
مَلْجَئي ، بل مَعْبَدي ، بل وَطَني !؟

---

(١) اشارة الى صوت الرعد (٢) اشارة الى انقشاع الغيوم

* * *

هذه هي أهمُّ مناحي الشعراء ازاء الطبيعة ، وهم في ظروفها جدُّ مختلفين كما قدَّمتُ ، إذ لابدَّ من تأثير نفسية الشاعر ومزاجه وظروفه الخاصة وتقاليد بيئته وعصره وغير ذلك من العوامل . ولسنا نجد حتماً كل قسم من هذه الأقسام مستقلا بذاته بل قد يتدخل بسهولة أحدُ هذه الأقسام في غيره ، فنجد مثلا التصوف والوصف مزيجاً واحداً ، وهلمَّ جرّا .

وقد تناول شيرب ( Shairp ) وهدسن ( Hudson ) تفسير الطبيعة في الشعر والتعبير عنها بالتحليل الوافي ، فليرجعْ اليهما من شاء من حضراتكم ، فمثل هذه الدراسات الطريفة جديرةٌ بالامعان وبالحفاوة التامة بها . ولننتقل الآن الى شعر المتنبي لنرى الى أيِّ من هذه الأقسام يتَّجه ما له من شعر الطبيعة إنْ كان له مثل هذا الشعر ، واذا لم يكن له فكيف يتَّفق ذلك والاشادة به كشاعر مطبوعٍ لابدَّ لشعره من صلةٍ قويةٍ بالطبيعة ؟

الواقع أنَّ للمتنبي شعراً في الطبيعة ، ولكنَّ معظم شعره يمثِّل نظرية التحويل ، فقد ركَّز الطبيعة في دنياه ودهره ونصب نفسه للجبارة في صراعٍ معها ، وانحصر معظم شعر الطبيعة عنده في الوصف تارة وفي السخط عليها غالباً .

فأما عن شعره الوصفى فقصيدته التى وصف فيها شِعْبَ بوّان كانت وما تزال تمدّ من رائع بيانه ، وفيها يقول :

مَغانى الشِّعْبِ (١) طيباً فى المغانى
بمنزلةِ الربيعِ من الزّمانِ
ولكنَّ الفتى العربىَّ فيها
غريبُ الوَجْهِ واليدِ واللسانِ
مَلاعبُ جِنّةٍ (٢) لو سار فيها
سليمانٌ لسارَ بترجمانِ
طبَتْ (٣) فرساننا والخيلَ حتى
خشيتُ وإنْ كرُمْنَ مِن الحِرانِ
غدَوْنا تنفُضُ الأغصانُ فيها
على أعرافها مثلَ الجُمانِ (٤)
فسرتُ وقد حجبنَ الحرَّ عنى
وجئنَ من الضياءِ بما كفانى

---

(١) الشعب : المنفرج بين جبلين . (٢) الجنة : الجن (٣) طبت : دعت
(٤) الجمان خرز من الفضة يشبه اللآلىء .

obeikandi.com

وألقى الشَّرقُ (١) منها فى ثيابى
دنانيراً تفرّ مِن البَنانِ
لها ثمرٌ تشيرُ اليكَ مِنهُ
بأشربةٍ وقَفْنَ بلا أوانِ (٢)
وأمواهٌ تَصِلُّ بها حصاها
صليلَ الحَلْىِ فى أيدى الغوانى

فهذا الوصف الفاتن يعطينا صورة فنّية ناطقة كوصف البحترى للربيع ، وهى شهادةٌ بالغةٌ بقدرة المتنبى الوصفية وتذوّقه التام لجمال الطبيعة . ولو كانت ظروف بيئته وأحواله الخاصة ساعدته على توجيهه فى معظم شعره الى مثل هذا المجال لكان لنا من شعر المتنبى العجب العجاب بما اشتهر به من وثبات الخيال وجراءة التعبير وقوة السبك .

والمتنبى يرثى مصير الانسانية ويضع الطبيعة فى موضع العاتى الغادر أو يضع الانسان فى موضع العبد الصغير المدين لها كما نرى فى قوله :

---

(١) أراد بالشرق هنا الشمس . (٢) أوان جمع آنية . يريد ان قشر الاثمار رقيق حتى أن الماء فيها يرى من خلاله !

لابُدَّ للإنسانِ من ضَجعةٍ
لا تقلبُ المُضجَعَ عن جَنْبِه
يَنسى بها ما كان من عُجْبِهِ
وما أذاقَ الموتُ من كَرْبِهِ
نحن بنو الموتى فما بالُنا
نَعافُ ما لا بُدَّ من شُربِهِ ؟!
تَبْخلُ أيدينا بأرواحِنا
على زمانٍ هي من كَسْبِهِ
فهذه الأرواحُ من جَوِّهِ
وهذه الأجسامُ من تُرْبِهِ

لو فكرَ العاشقُ في منتهى
حُسْنِ الذي يَسبيهِ لم يَسْبِه
لم يُرَ قَرْنُ الشمسِ في شَرْقِهِ
فشكَّتِ الأنفسُ في غَرْبِهِ

يموتُ راعي الضأنِ في جَهْلِه
مِيتةَ جالينوسَ في طِبِّهِ

obeikandi.com

وربما زاد على عمره
وزاد فى الأمن على سربه
وغاية المفرط فى سلمه
كغاية المفرط فى حربه
فلا قضى حاجته طالبه
فؤاده يخفق من رعبه

فهذه الأبيات من صميم الشعر الانسانى الذى يظهر سيطرة الطبيعة التامة وضعف حيلة الانسان ازاءها . وهى تذكرنى بقول الشاعر أرنولد على لسان الطبيعة :

Race after race, man after man,
Have thought that my secret was theirs,
Have dream'd that I lived but for them,
That they were my glory and joy.
They are dust, they are changed, they are gone,
I remain.

وشعورُ المتنبي بطاقته الشعرية العظيمة وبجمود عصره لما يستحقّ من منزلة دفعه الى التحدى لكلّ شىء ، وحتى الى تحدّى الطبيعة نفسها باسم الزمان إذْ يقول مثلاً :

دخلتها وشعاعُ الشمس متّقدٌ
ونورُ وجهكَ بين الخلْقِ باهرُهُ
فى فيلقٍ من حديدٍ لو قذفتَ به
صرْفَ الزّمانِ لما دارتْ دوائرُهُ !

وقد تفشّتْ هذه الروح بين الشعراء تقليداً ، ولكننا نعرف اخلاص المتنبي فى اعتداده من الكثير بين شمائل شعره وهو القائل :

وانّا لمن قومٍ كأنّ نفوسهم
بها أنفٌ أن تسكن اللحمَ والعظما !

والقائل :

أنفُ الكريم مِن الدنيّةِ تاركٌ
فى عينهِ العددَ الكثيرَ قليلاً

وفى رثائه لجدّته رثاء آخر لمآل الانسانية وسخطٌ ظاهرٌ على الطبيعة . مثال ذلك قوله :

عرفتُ الليالى قبلَ ما صنعتْ بنا
فلمّا دهتْنى لم تزِدْنى بها عِلْما !

هيبتي أخذتُ الثأرَ فيكِ من العدى
فمن لي بأخذِ الثأرِ فيكِ من الحمّى (١)

وفي ثنايا قصائد المتنبي نجد أمثلةً من التوجّه الى التشبيه بالطبيعة أو الى استغلالها كمنظر من المناظر لابراز موضوعه ، مثل قوله :

يدبّرُ الملكَ من مصرٍ الى عدنٍ
الى العراق فأرض الرّوم فالنّوبِ

اذا أتتها الرياحُ النكبُ من بلدٍ
فما تهُبُّ بها الاّ بترتيبِ

ولا تجاوزُها شمسٌ اذا شرقتْ
الاّ ومنه لها إذنٌ بتغريبِ

وقوله في كافور وفي دار بناها :

نزلتْ إذ نزلتَها الدارُ في أحـ
سنَ منها من السّنى والسّناء

حلَّ في منبتِ الرياحين منها
منبتُ المكرماتِ والآلاءِ

تفضحُ الشمسَ كلما ذرّتْ الشمْـ

سُ بشمسٍ منيرةٍ سوداءِ

انّ فى ثوبكَ الذى المجدُ فيه

لضياءً يُزرى بكل ضياءِ

وقوله : قد سوّدتْ شجرَ الجبال شعورُهم

فكأنّ فيه مُسِفّةَ الغرْبانِ

وجرَى على الورقِ النجيعُ القانى

فكأنّه النّارنجُ فى الأغصانِ

والماءُ بين عجاجتين مخلّص

تتفرّقان به وتلتقيانِ

ركضَ الاميرُ وكاللجينِ حبابهُ

وثنى الأعنةَ وهو كالعقيانِ !

ولكن انشغاله بالمجد يصدّه عن التمادى فى ذلك . وفى قصائده الحربية غير قليل من الأوصاف التى تمتّ الى الطبيعة بصلة . مثال ذلك قوله :

obeikandi.com

أرِجَ الطريقُ فما مررتَ بموضعٍ
الاَّ أقامَ به الشذا مستوطنَا
لو تعقلُ الشجرُ التى قابلتَها
مدَّتْ محيّيةً اليكَ الأغصُنَا
سلكتْ تماثيلَ القبابِ (١) الجنُّ مِنْ
شوقٍ بها فأدَرْنَ فيكَ الأعيُنَا
طرِبَتْ مَراكبنا (٢) فخِلْنَا أنّها
لولا حياءٌ عاقَها رقصتْ بنا
أقبلتَ تَبْسِمُ والجيادُ عوابسٌ
يَخْبُبْنَ بالحَلَقِ المضاعَفِ (٣) والقنا
عقدتْ سنابكُها عليها عثيَراً
لو تبتغى عَنَقاً عليه لأمْكَنَا (٤)

---

(١) القباب جمع قبة وهى الخيمة أى أن الجن من كثرة شوقها اليك دخلت فى الصور المنقوشة على القباب التى فوقك لتراك (٢) مراكبنا : المراد بالمراكب هنا الخيول (٣) الحلق المضاعف : المراد به الدروع . (٤) السنابك جمع سنبك وهو طرف مقدم الحافر والعثير الغبار ، والعنق ضرب من السير

فهذه العبقرية الشعرية التي يقول صاحبُها:

أبدو فيسجدُ مَنْ بالسوء يذكرني
فلا اعاتبهُ صَفْحاً وإهْوَانَا
وهكذا كنتُ في أهلي وفي وطني
إنَّ النفيسَ غريبٌ حيثما كانَا

وهذه العبقرية الفذة أطالها عن جمال الحياة وعن التنوّع في شعر الطبيعة البيئات الحربية التي اتصل بها والجحود الذي عاناه، فأخرج لنا شعراً فلسفياً هو خلاصة غالية من تجاريب الحياة وطبائع الناس وموازين القدر، وانصرف بذلك عن التغلغل بتأمّلاته في جمال الكون روحياً ومادياً. وهذا مثالٌ بارزٌ للتحويل في الشعر لا للقصور، وحجة دالة على جناية البيئة على الشعر والشعراء. والشواهد المأثورة من شعر المتنبي في الطبيعة فصيحة عن قدرته ومكانته وطبعه الأصيل، وهي أبلغ دلالة على طاقته العظيمة وعلى جوهره الشعري العزيز في نوعه وإن قلّ في مقداره.

ومع شكري لكم أيها السادة على استماعكم الى هذه المحاضرة لا أجدأ كرم من هذين البيتين للمتنبي في تحية ذكراه الخالدة، وختاماً لتقديرنا تلك العظمة الرائعة:

ذِكَرَ الأنامُ لنا فكانَ قصيدةً
كنتَ البديعَ الفردَ من أبياتها

في الناسِ أمثلةٌ تدورُ حياتُها
كمماتها ، ومماتُها كحياتها !

# فهرس


| الصفحة | | الصفحة | |
|---|---|---|---|
| ٣ | الطبيعة والشاعر المطبوع | ١٦ | المقابلة بين الطبيعة والانسان |
| ٣ | المتنبي والنقّاد الغرب | ١٧ | اظهار قوة الطبيعة |
| ٣ | اعجاب العرب بالمتنبي | ١٨ | عطف الطبيعة وتجاوبها |
| ٣ | شاعرية المتنبي | ٢٠ | التحويل في شعر المتنبي |
| ٤ | شعر الطبيعة | ٢١ | شعره الوصفي للطبيعة |
| ٤ | تناول الشعراء للطبيعة | ٢٢ | سخطه على الطبيعة |
| ٤ | الفرحة الساذجة بالطبيعة | ٢٤ | صرخة الشاعر أرزوله |
| ٦ | التعلق بجمال الطبيعة المادي | ٢٤ | التحدّي عند المتنبي |
| ٧ | احتقار الطبيعة مادة للتصوير | ٢٦ | استقلال المتنبي للطبيعة |
| ٨ | استقلال الطبيعة كأرضية | ٢٧ | الطبيعة في شعره الحربي |
| ١١ | شعر التداعي والمشاركة | ٢٩ | عبقريته الفذّة |
| ١٣ | شعر الطبيعة الوصفي | | |

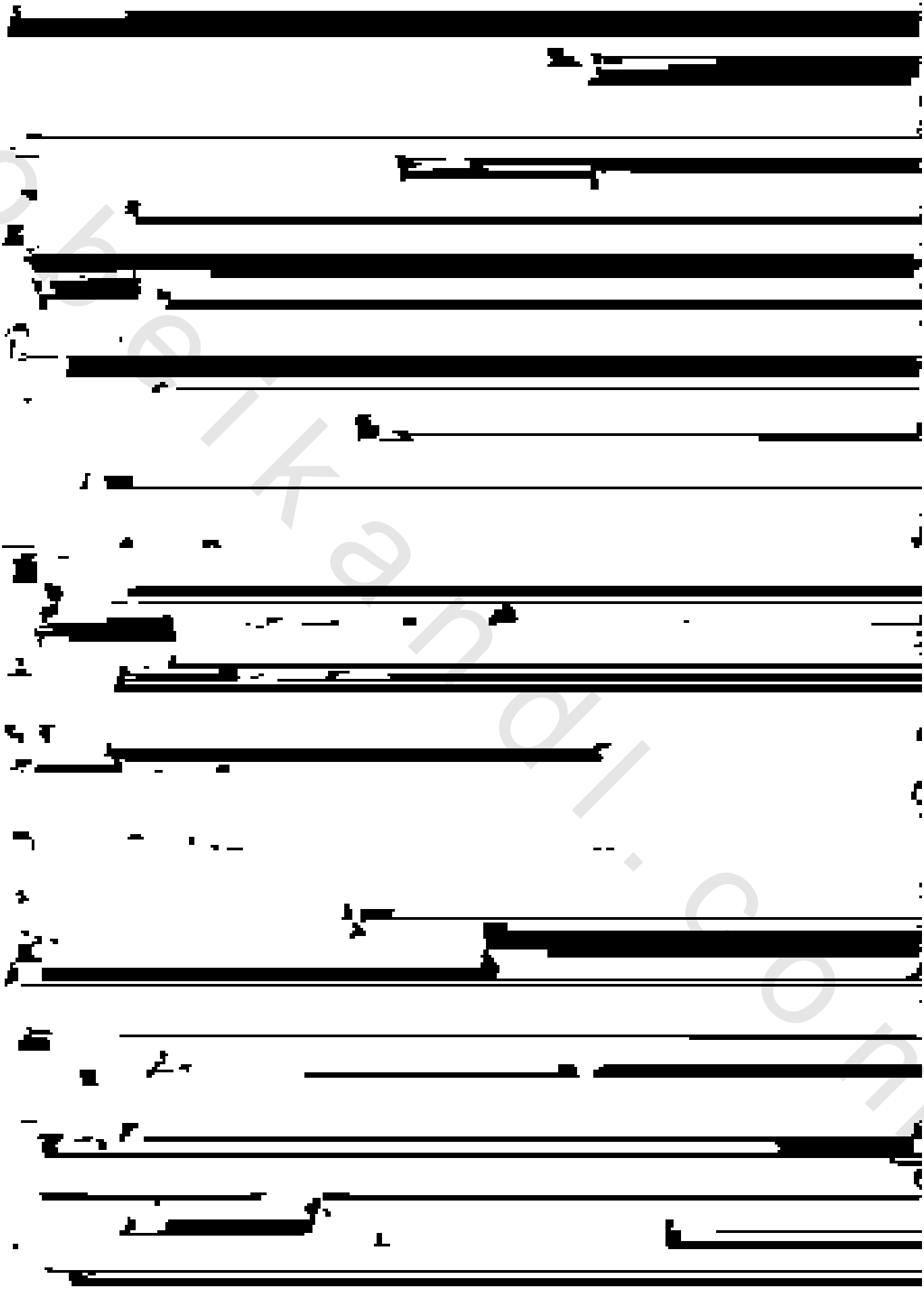

# رواية الألفة

## وطريقة التصنيف عند العرب

ملحق بعدد ابريل سنة ١٩٣٤

من مجلة «أبولو»

بقلم

عبد الحميد سالم

مطبعة التعاون

obeikandl.com

# رواية اللغة

## وطريقة التصنيف عند العرب

علق بذهني عند النظر في نهج كتاب « الاغاني » ان أبحث طريقة التصنيف عند العرب ، فالتزمت الرجوع الى أمهات كتب الادب . وجرى استعمال هذه اللفظة « الادب » في الصدر الاول بالمعنى الذي شرحه « ابن قتيبة » [1] ، وكان علم العرب من قبل القرآن نذراً ، [2] لانهم لم يشتغلوا بالحكمة [3] وان العرب انما عرفت التحديد في استعمالات اللغة وصيغ التأويل والتشريع من

---

(١) في « أدب الكاتب » وكانوا يقولون: « فلان من أئمة الادب وغلبت عليه اللغة . . الخ » وروى « ان اصحاب « الادب » كانوا يأتون الشافعي فيقرؤن عليه الشعر فيفسره » السيوطي : المزهر.

(٢) « . . ما تتباهى به العرب من قيافة الاثر وعيافة الطير ومن العلم بالخيل والانساب والاخبار والشعر » السيوطي . (٣) طبقات الامم لصاعد .

القرآن . ومن يقل تشريع يقل سياسة واجتماع . وان ما اصطلحوا عليه فى جاهليتهم من الاسماء والمعانى وعلى الخصوص فى شأن وثنيتهم ونسائكهم قد نسخه الاسلام ، فنقل من اللغة ألفاظاً عن مواضع الى مواضع أخرى (١) . ولما كانت اللغة العربية أقدم من العرب لم يكن تركيبها طبيعياً (٢) فان العرب حينما استعملوا الفهم فى الشعر والخطابة كان ورثة المدنية فى العالم القديم قد انتهوا من وضع قواعد متواطأ عليها فى استعمال اللغات : كان الاغريق قد فرغوا من وضع علم البلاغة والشعر ، وكان اللاتين قد بلغوا السماكين فى فنون الخطابة والبيان .

وبقيت ثقافة الشعر (٣) ذخر العرب . وكانت مزايا اللغة أعظم من مزايا الشعر وأقوى من صفات الذهن العربى ، ووصلت العرب بعد إذ صارت كالمرآة انعكست عليها كل الصور ، ورأوا إعجازها فى القرآن ، فاشتغلوا بروايتها وحفظها . ولبث ادباء العرب زهاء ثلاثة قرون (٤) اذا أرادوا ان يكتبوا أدباً لم يتجاوزوا حدود التفقه فى هذه اللغة .

---

(١) المزهر . (٢) فطرياً كسائر اللغات التى سبقت التاريخ . (٣) المزهر . (٤) « وآخر من علمته أملى على طريقة اللغويين ابو القاسم الزجاجى وكانت وفاته سنة ٣٣٩ هـ » .

وغلبت اللغة ورواتها سائر فنون الأدب ، وانبعث ذكاء العرب بهذا الموضوع انبعاثاً فياضاً ملأ الكتب والمجالس وسال على ألسنة الرواة والحفاظ ، واجتمع من هذا الجنى الطريف والتالد من علم أئمة اللغة مثل الخطة الواسعة الدقيقة يخططها المهندس الحاذق . أما الانشاء طبق هذه الخطة فقد كان الصناعة (١) .

ومن أحسن تصانيف ذلك العصر ( ٢١٥ — ٣٩٠ ) وأمتعها ما تناول به أئمة الأدب خصائص اللغة وشرح الأسماء واشتقاقها وما اصطلح عليه العرب من اللغات وكيف « كان توقيعها للحروف على المعانى » وما أورده الرُّواة من بديع فى اللغة لم يوجد فى كتب المتقدمين ومراجعاتهم تصحيف بعض المصنفين وكانت اللغة كالهرم واسعة منيفة الى ما لا يتناهى اليه ذهن العربى ، وحتى كانت القبيلة لا تكاد تحيط بلغة القبيلة الأخرى . من أجل ذلك سمّوها اللغات (٢) أما تلك التصانيف التى وسمت العصر بسمة عجيبة ( جمع

---

(١) صناعة النثر والكلام والبلاغة . وقد أثرت سنن الصناعة فى فنون الأدب . راجع ما حكى عن المبرّد والجاحظ والحريرى .

(٢) قيل لأبى عمرو بن العلاء : كيف تصنع فيما خالفتك فيه العرب وهم حجة ؟ ، فقال : أحمل على الأكثر وأسمى ما خالفنى « لغات » : طبقات النحويين .

اللغة ) من نوع ما يتصف به عصر بناة الاهرام ، فقد كانت لشدة اتصالها بسلائق العرب تحكي شيئاً راسخاً عميقاً كأركان هيكل أو قاعدة صرح . وتأصل أسلوبها فى نفوس الأدباء وخضع لسننها الشعر والنثر والتفكير ، فان العرب حين أرادوا أن يكتبوا أدباً لم يتجاوزوا حدود استعمالات اللغة ، وظل تقليد أسلوب اللغويين يحول دون الأدب التحليلى .

واستنبط المولدون طرازاً من البلاغة بألفاظ استحدثوها لم يصطلح عليها العرب توخوا فيها الطلىّ الرشيق من الالفاظ . وكان العصر قد شابه حب التظرف والغريب وتسرب الفساد الى اللغة (١) ، وقال الجاحظ : « وقد يستخف الناس ألفاظاً ويستعملونها وغيرها أحق منها الخ . » وقال سهل بن هرون : « والناس موكلون بتعظيم الغريب واستطراف البديع الخ . »

وكان هذا الذوق فى تخير الألفاظ من أثر ما خلفه الجاهليون .

---

(١) قال الجاحظ : « والعامة ربما استخفت أقل اللغتين وأضعفهما وتستعمل ما هو أقل فى أصل اللغة استعمالاً وتترك ما هو أكثر وأظهر » ، وقد عنى بالعامة هنا طبقة من المتأدبين فى الأدب رفعها على مستوى الروم والفرس .

انتهجته قريش أول الأمر فكانت تنتقد الافصح من الألفاظ « وأسهلها على اللسان عند النطق وأحسنها مسموعاً وأكثرها إبانة عما فى النفس » ، وكان من ثمار هذا التخير الأول القرآن وبما أحدثه المولدون من طراز بديع فى البلاغة [١] انتقل ديوان الرسائل من الفارسية الى العربية [٢] .

غير ان أئمة اللغة ورُواتها فى الصدر الأول لم يدرسوا البيان فى اللغات القديمة وبخاصة السامية . وكان لشجرة اللغات السامية بلاغة وبيان من الطراز الأول . وظل العرب زمناً طويلاً لا يؤمنون أن تُمتّ لغة أخرى تبين إبانة اللغة العربية [٣] وكان الرُّواة لا يهمهم أن يرجعوا الى أصل اللفظة من أية لغة أعجمية أو سامية وانما ينظرون الى تركيبها ومنطقها اذا كانت متفقة مع ما ألفوه من طرائق التركيب ومذاهب الاشتقاق . وكانت هناك لهجات ولغات عربية [٤] متباينة سبقت لغة قريش التى نزل بها القرآن . فاذا اتفق لأحد الرواة لغة

---

(١) لم يشرح مصنّفو العرب كيف كان ديوان الرسائل قبل انتقاله الى العربية . (٢) قال الجاحظ فى تعريف الكلام : « البلاغة عند اليونانى : الاختيار والتأنق » . (٣) « ان أردت أن سائر اللغات تبين إبانة اللغة العربية فهذا غلط » : المزهر . (٤) قال أبو عمرو بن العلاء : « ما لسان حِمْير وأقاصى اليمن لساننا ولا عربيتهم عربيتنا »

افريقية تعني القلم أو القهوة مثلاً ولم يعرف أصلها من أية لغة سامية أو عربية قديمة يرتجل « كانت العرب أو سمعت من الاعراب انهم يسمون الخمر قهوة ».(١) وكان الجاهليون أنفسهم يستعملون الألفاظ للمعاني بالسماع على اعتبار ان هذه اللفظة أو ذلك الاسم درج وشاع على هذا المعنى فيستعملونه ويقع اصطلاحهم عليه .

---

(١) روى السيوطي : « أخبرنا أبو حاتم ، قال : سألت أم الهيثم عن الحب الذي يسمى « اسفيوش » ما اسمه بالعربية ؟ فقالت : أرني منه حبّات ، فأريتها ففكرت ساعة ثم قالت : هذه البحدق . ولم أسمع ذلك من غيرها » وروى عن « رؤبة » وأبيه انهما كانا يرتجلان ألفاظا لم يسمعاها ولا سبقا اليها . والاسمى كان مشهوراً بأنه كان يزيد في اللغة ما لم يكن منها . وروى السيوطي في « المزهر » : « ان محمداً بن اسحق بن يسار كان من علماء الناس بالسير والمغازي وكان ينسب الى عاد وثمود شعراً . ونحن لا نجد لأولية العرب المعروفين شعراً فكيف بعاد وثمود ؟! » . وقال أبو زيد الانصاري : « حدثني خلف الاحمر قال : أتيت الكوفة لأكتب عنهم الشعر ( قبل سنة ٢٠٠ ) فبخلوا عليّ به فكنت أعطيهم المنحول وآخذ الصحيح ثم مرضت فقلت لهم : ويلكم أنا تائب الى الله ، هذا الشعر لي فلم يقبلوا مني ، فبقي منسوباً الى العرب لهذا السبب ! »

وان عصر تدوين اللغة كان فيه الندرة التامة من العارفين باللغات السامية : ( الحميرية والسريانية والعبرانية ) (١)

ولبث العرب مسافة من الزمن لايفارق ذوقهم نوع من الفطرة ( مزاج البدو ) يحضهم على استطراف البديع ، وكانت العربية تعمل فى مخارجها كل وظائف النطق وفيها التشدق . لم تكن لغة موسيقية ( صوتية ) كالايطالية مثلاً ، وقد نشأت وارتقت مع سنة الطبيعة فى سائر الكائنات ، فهى لغة موضوعة (٢) وكانت فى معانيها ومزاياها

---

(١) ان دراسات أئمة اللغة فى الصدر الاول لا تدل على معرفتهم للغات السامية ، ولكن لعل بينهم من كان يعلمها . قال نصر بن محمد بن أبى الفنون النحوى : « سين العربية « شين » فى العبرية : فالسلام شلام ، واللسان لشان ، والاسم اشم » .

(٢) لسنا نريد بأن اللغة غير موضوعة أنها منزلة فقد فرغ أئمة اللغة من العرب من الكلام فى هذا الموضوع . انما نريد انها نشأت وترقت على غرار الخلقات البشرية لكنها غير قابلة مثلها للتطور ، وهذا موضوع سنفرد له مقالاً خاصاً . أما كون اللغة « تواضعية ومتواطأ عليها أو ملهم اليها فهذا موضوع يحتاج الى فضل تأمل غير أن أكثر أهل النظر على ان أصل اللغة انما هو تواضع واصطلاح لا وحى وتوقيف » . وهذا رأى ابن سيدة وشاركه فيه كثير من الأئمة ، أما ابن سيدة فيجب ان نعده من كبار أحرار الفكر فى هذا الموضوع .

وبلوغها أحياناً حدّ الكمال فى الفصاحة والايجاز أقدم من العرب الجاهليين ، واذا أمعنا النظر فى سنن العرب فى البلاغة وانتقادهم للالفاظ وتوقيههم للمعانى يتقرر لدينا ان هذه اللغة وصلت العرب فى درجة من الكمال تشبه ان تكون خلاصة ما اعتادوه من اللغات السامية الشائعة لعهدهم أو زبدة تلك اللغات وأسهلها على اللسان وأعظمها إبانة (١) .

ورسخت دراسة هذه اللغة فى نفوس أدباء ذلك العصر الذى ابتدأه الخليل بكتاب « العين » (٢) وختمه أبو القاسم الزجاجى بأماليه (٣). وقد قلنا إن الاحاطة باللغة كان فى عصر الحضارة العلمية الاسلامية نوعاً من التفوق الشائع الذى يرافق سائر فروع العلم ،

---

(١) لم يتكلف رُواة العرب البحث عن أصل اللغة العربية وإن كانوا قد أرجعوها الى اسمعيل ولعلها أقدم لغات الدنيا اذا صحّ ماقاله المرحوم كمال باشا من اشتراكها مع الهيروغليفية ، وسنوضح هذه النقطة فى مقال . (٢) أصل الكتب المصنفة فى اللغة ، وقد نهج فيه الخليل طريقة تأليف اللغة على الحروف وهو أول من ابتدعها .

(٣) « . . . وانقطع املاء اللغة من دهر مديد ( ٨٧٣ هـ ) وأردت أن أجدد املاءه وأحييه فأمليت مجلساً واحداً فلم أجد له حملة ولا من يرغب فيه » السيوطى : المزهر .

إلا ان جريان اللغة فى مجرى علم الحديث خلق تهيب القديم (كلاسيسزم) وسنّ طريقة النقل والتقليد ، وكان المجهود الجبار الذى بذله أئمة الادب فى جمع اللغة والوصول بشرحها وايراد شواهدها الى الكمال قد جعل ذلك العلم كالصرح الشامخ ضعفت دونه عزائم أخلاف اولئك الأئمة حين فسدت اللغة ورغب عن حفظها المتأدبون .

وارتفع مقام الاشتغال باللغة لما غلبت على الأدب وجرت فى وادٍ واحد مع الحديث . وتوخّى أئمة اللغة التأنق والابداع فى أسلوب التأليف وعنوا فى سياق التعبير عن الألفاظ والتحرى والانتقاد بالفروق (١) والتخصيص ومواضع الوحدة فى المترادف من الكلام (٢) وكأن سليقتهم الصافية وشدة اتصالها بالذوق وما اتصفوا به من روح الكفاية والمقدرة فى تصوير ذلك الهيكل الكامل الذى اعاروه اسم «الأدب» قد انحصر فى النقل والرواية . وكانوا فى انتقاد ما يتلقفونه من أفواه العرب يستطرفون الاسماء

---

(١) كتاب أبى حنيفة فى «الانواء» وكتاب يعقوب فى «النبات» وكتب الأصمعى فى «الابل» و «الخيل» وكتاب أبى زيد فى «الغرائز والجرائم» وما الى ذلك من التصانيف التى عنوا فيها بشرح الأسماء وتطرقوا من تسمية الأعضاء الى الوظائف كما يلاحظ فى كتب المبرّد والجاحظ . (٢) علم الجوارح.

كفعلنا عند الاهتداء الى اصطلاح مستحدث فى إحدى اللغات ؛ وكان الجاحظ والمبرّد والأصمعى وسائر علماء ذلك العصر يتكلمون عن العرب وتبيانهم وخلابة ألسنتهم كما يتفق لنا أن نتكلم عن بلغاء الغربيين المعاصرين وفنونهم فى الأدب (١) .

وتكيّفت أذهان العرب واعتدلت لهجاتهم (٢) بالاجواء الجديدة التى عاشوا تحتها دون أن تتكيف مع ذلك طرائقهم فى التصنيف . وبقى احترام السلف الذى تقرر فى قلوبهم من ناحية الشريعة والنظام راسخاً فى نفوسهم من ناحية دراسة العلم وحفظه . ولم تغلب على الشعر قابلية جديدة للتطوّر (٣) وكان لا بدّ من تطوّر الشعر لكى تتخذ اللغة القالب الطريف الملائم لحالات التظرّف (٤) التى طرأت على العرب ومزاوجة المعارف الاسلامية بثقافات الامم التى اتصلوا بها عن طريق النقل والاختلاط (٥)، لكن أسلوب

---

(١) راجع البيان والتبيين للجاحظ . (٢) كتاب « المغرب فى أخبار المغرب » للضبى (٣) راجع ترجمة ابن رشد فيما يختص بترجمة اسم « الزهرة » وما كان من تحريم نقل الميثولوجيا الاغريقية .
(٤) كان العرب يعنون بالتظرف ما نعنيه اليوم بالمدنية أو الحضارة
(٥) لم تهمل أية حكومة عربية سواء كان فى بغداد أو الأندلس تأليف هيئات لنقل الكتب عن اللغات الأخرى . راجع ياقوت الرومى : معجم الادباء .

التصنيف لم يتطور لا فى الشرق حيث كان جمع اللغة وإنشاؤها ولا فى الغرب حيث اشتغل الفقهاء بعلوم الأولين وبخاصة الارسطوطالية .

وظلّت طريقة التصنيف خاضعة لأسلوب الرواية ومذاهب اللغويين فى انشاء كتبهم : طريقة ارتجلها اللغويون فى صدر الاسلام وكأنهم فرضوها على جيل عديد من المصنّفين من بعدهم ومن عاصرهم . وبقى تقليد هذه الطريقة يغطى على علم العالم ويطمس الفكرة المبتكرة ولا يترك لبلاغة البليغ أثراً ظاهراً . وكذلك أفسد احترام مذاهب السلف « الكلاسيسزم » فى الأدب الذهنية العربية وقضى على نبوغها وعبقريتها .

أما تلك الطريقة méthode أو ذلك الاسلوب كما نعتّه صاحب « الاغانى » فيتصف بمزايا خاصة به منسوبة اليه لايكاد يتعداها ، منها :

(١) الجمع أو النقل
(٢) الترتيب
(٣) الحشو أو التبويب
(٤) الاخبار أو الفوائد .

ولم يشذّ عن هذا الاسلوب غير كتب الحكمة والجدل التى كانت ثمرة الاتصال الفكرى بثقافات الاولين .

وجرى مصنّفو العرب على هذه الطريقة فى التقليد والنقل . ولقد تتصفح المؤلف الكبير من نوع « المزهر » للسيوطى أو « العقد الفريد » لابن عبد ربه الاندلسىّ أو « الكامل » لابن الاثير أو « لسان العرب » لابن منظور فلا تكاد تقع على رأى شخصى أو ملاحظة أو فكرة مبتكرة لمؤلف الكتاب فى جوهر الموضوع الذى ألف فيه ، كأن التصنيف عندهم كان ضرباً من الجمع او النقل يتقيد فيه الخلف بكلام السلف الى حد أضرّ بثمار الذهن العربى وبثّ السخف والركاكة والخلط فى كتب الادب .

على أنه لا بدّ مع ذلك من التمييز بين أمهات كتب الأدب وأصولها والفروع . هذا كتاب « لسان العرب » للامام جمال الدين ابن منظور (١) وهو من أحسن ماصنّف فى اللغة ، قال فى مقدمته « إنى لم أزل مشغوفاً بمطالعات كتب اللغات والاطلاع على تصانيفها ورأيت علماءها بين رجلين : اما من أحسن « جمعه » فانه لم يحسن وضعه واما من أجاد وضعه فانه لم يُجِد « جمعه » ولم أجد فى كتب اللغة أجل من « تهذيب اللغة » لأبى منصور محمد بن احمد الازهرى ولا أكمل من « المحكم » لابى الحسن بن سيدة الاندلسى . وهما من

---

(١) له مختصرات مشهورة فى فروع الادب والعلم . خدم فى « ديوان الانشاء » مدة عمره ومات سنة ٧١١ هـ .

امهات كتب اللغة على التحقيق . غير أن كلاً منها مطلب عسر المهلك فأهمل الناس أمرها ، وليس لذلك من سبب إلا سوء الترتيب وتخليط التفصيل و التبويب ورأيت أبا نصر اسماعيل بن حماد الجوهري قد أحسن ترتيب مختصرة ، فعكف على الناس أمره فتناولوه ، غير انه في جوّ اللغة كالذرة . فاستخرت الله سبحانه في « جمع » هذا الكتاب . ولم أخرج فيه عما في هذه الأصول(١) ورتبته ترتيب « الصحاح » في الأبواب والفصول ، ولما كان كل واحد من هؤلاء العلماء انفرد برواية رواها ولم يأتِ في كتابه بكل ما في كتاب أخيه فصارت « الفوائد » في كتبهم مفرقة ، فجمعت منها في هذا الكتاب ما تفرق ، فانتظم شمل تلك الأصول كلها في هذا « المجموع » .

فترون ان مطابقة كلام ابن منظور للطريقة التي انتهجها الرواة في الأصل تدل دلالة واضحة على اندثار ذكاء الأئمة أنفسهم تحت تأثير احترام مذاهب السلف . ولما أُلهموا الابتكار في هذا الأسلوب أدخلوا التنويع على انه تفنن والتخصيص على انه إجادة في الوضع .

---

(١) يريد « التهذيب » و « المحكم » و « الصحاح » وما جاء به ابن الأثير الجزري .

قال جلال الدين السيوطي في تصدير « المزهر » : « هذا علم شريف ابتكرتُ « ترتيبه » واخترعت « تنويعه » وتبويبه ، وذلك في علوم اللغة ، حاكيتُ به علوم الحديث في التقاسيم والأنواع ، وقد كان كثير ممن سبقني يلمُّ بأشياء من ذلك ، غير أن هذا المجموع لم يسبقني اليه سابق » وقال أحمد بن فارس في « فقه اللغة » : « والذي « جمعناه » في مؤلفنا هذا مفرقاً في أصناف كتب العلماء ، وانما لنا فيه اختصار مبسوط أو شرح مشكل ... » ولما وضع الفيروزابادي كتابه « اللامع المعلم » جمع فيه بين « المحكم » لابن سيدة و « العباب » للرضي الصغاني . وقال إن صاحب « الصحاح » فاته ثلثا اللغة أو أكثر إما بإهمال المادة أو بترك المعاني الغريبة النادرة » . والدليل على ان هذه الطريقة لم تكن في أمهات كتب اللغة (١) وانما كانت في الفروع ما روى عن « ابن دريد » (٢) انه أملى « الجمهرة » في فارس ثم أملاها في بغداد والبصرة من حفظه

---

(١) كتاب « العين » و « جمهرة » ابن دريد و « صحاح » الجوهري و « محكم » ابن سيدة (٢) الامام أبو بكر محمد ابن دريد إمام عصره في اللغة والأدب والشعر كان ببغداد ( ٢٢٣ — ٣٢١ هـ . )

ولم يستعينوا عليها بالنظر فى شىء من الكتب . وفى الأصل كان « الجمع » و « الوضع » فى الشعر ثم كان فى رواية اللغة ثم كان فى الأخبار . ولم يسلم الأدب ولا التاريخ من هذه الطريقة . ومن عجيب ما وقع لنا وبيّنّاه فى هذا الموضوع كتاب سمّاه صاحبه « الاذكياء » دل فى تصديره على أنه تبسط فى بحث هذه الموهبة ولكنه لم يستطع أن يتخلص من قيود الطريقة القديمة فى تصنيفه مع بصيرته ودقة ذكائه ولطف أسلوبه . وتحمل العلماء والادباء دهراً هذه الطريقة والتزموا هذا الاسلوب فى التصنيف على ما أوتوا من سعة الاطلاع وحرية الرأى والتبحر فى العلم . ألا ترى كيف أن أبا الحسن على بن اسماعيل بن سيدة قد شهر رأيه فى تواضع اللغة واعتبرها كائناً حياً تجرى عليه سنة التطوّر عند ما شرع القول على خلق الانسان فبدأ بتكوّنه ثم بالجواهر التى تأتلف منها كليّته ثم ما يلحقه من العظم والصغر ثم الكيفيات كالألوان الى ما يتبعها من الاعراض والخصال (١) ، وكيف أن أبا عثمان الجاحظ وكان من أعلم الناس بالكلام وبغيره من علوم الدين والدنيا عند ما ذهب فى بيان

(١) أبو الحسن بن اسماعيل النحوىّ اللغوىّ الاندلسى المعروف بابن سيدة المتوفى سنة ٤٥٨ هـ . كان من المشتغلين بالمنطق .

المعانى وشرح الاسماء فى كتاب « الحيوان » لم يقف عند الفوائد اللغوية بل تجاوزها الى شرح الوظائف والاعضاء وتلك النوادر السيكولوجية والفزيولوجية المستغربة التى يندر أن تتفق لعالم فى اللغة (١) وأكثر من ذلك ما وقفنا عليه لناقد راوية من الطراز الأول — قدامة بن جعفر — فى تصدير « نقد الشعر » عند ما نفى ضرورة تعلم العروض فقال إن الجهل به غير ضائر فساوى فى نصرته لحرية الصناعة الاستاذ ابو اسحق الاسفرايينى حين نفى وجود المجاز فى لغة العرب على اتساعهم فيه (٢) وجعل العمدة فى ذلك على النقل المتواتر عنهم (٣) فالهمنا بحرية هذا الرأى الى مناسبة فى تاريخ الأدب الفرنسى لعهد الرومانتيسم أثارها « هيجو » فى شأن تسمية الأشياء مجازاً وحقيقة . (٤)

على ان العرب لم يخترعوا علماً بقواعد غير اللغة فتختلفوا فى هذا

---

(١) كان الجاحظ واسع الاطلاع فانه لم يقع بيده كتاب قط الا استوفى قراءته كائناً ما كان . (٢) « ان الحقيقة لابد من تقديمها على المجاز فان المجاز لا يعقل الا اذا كانت الحقيقة موجودة » — المزهر . (٣) « كل زمان قدر ان العرب نطقت فيه بالحقيقة قد نطقت فيه بالمجاز » السيوطى . (٤) راجع ما كتبه غوتييه أثر تمثيل « كروموبل » و « هرنانى » .

المضمار عن الاغريق الذين وضعوا الفلسفة والطبيعيات والأخلاق علوماً بقواعد وعن اللاتين الذين تفننوا في علم البيان .

وصلت هذه اللغة كاملة الى العرب الأميين في الجاهلية (١) ولم تنشأ وتترقّ معهم على غرار اللغات القديمة . فكما ان التفكير العربي عند ما وصلته اللغة كانت سبقته أشياء كثيرة في معرض التصور والنظر والاداء بقي فيه هذا التخلف بالنسبة للغة ، فلم يكتب حتى الآن أدباً تحليلياً ، فالاغراض الوسط في الحياة لا تحدّ بيان اللغة العربية ولا تسع عبقريتها ، ووقف أدباء العربية حتى الآن يستمدون ذكاءهم من اللغة لا من الفكرة ، وبقي الرومانتيسم في الأدب العربي ثمرة اطلاع العرب على ثقافات الأمم الأخرى ، وما زالت هذه الثمرة في كتب المتقدمين كنماذج البلاغة العربية أشبه بالمسادة النحام .

وأشهر العرب لغتهم وكان أئمتها هم دعاتها ، فبسطوا سلطانها على سائر الأمم ، وكان نوعاً من السيادة العربية ، فاستوى الفارسي والرومي والمصري والهندي والتركي في نوع واحد من البلاغة وطريقة مشتركة في التصنيف وأسلوب لا يكاد يتغير من التفكير

---

(١) الجاهلية اسم حدث في الاسلام للزمن الذي كان قبل البعثة

وكان أبو عثمان الجاحظ يذكر العوام فى معرض اللحن والخطأ والركاكة ولا يعنى «الفلاحين والحشدة والصناع والباعة» وانما يعنى الطبقة التى عقولها وأخلاقها فوق العرب والروم أى خواص الفقهاء والأئمة والأدباء ، فتصوروا ان أولئك الخواص بليت عقولهم التى رفعها الجاحظ فوق سائر الأمم القديمة تحت تأثير احترام مذاهب السلف « الكلاسيسزم » فاندثر ذكاؤها بطريقة النقل والتقليد كما تندثر الهياكل وكما تنهار القمم الشامخة !

وما نهجه الفيروزابادى من الأسلوب فى تاليف « القاموس» وابن منظور فى تأليف « لسان العرب » نهجه ابن الأثير فى تصنيف « الكامل » و ياقوت الرومى فى تأليف « معجم الأدباء » والسيوطى فى « المزهر » الخ . قال ابن خلكان فى مقدمة كتابه « وفيات الأعيان » وهو من أمتع ما ألف باللغة العربية فى فن التراجم : «هذا مختصر فى «علم التاريخ » (١) دعانى الى « جمعه » انى كنت مولعاً بالاطلاع على أخبار المتقدمين وتاريخ وفاتهم ومولدهم فعمدت الى الكتب الموسومة بهذا الفن ....

---

(١) ولم يذكر التراجم فى تصدير كتاب «موسوم بهذا الفن » من التاريخ .

واضطررت الى « ترتيبه » على حروف المعجم أيسر منه على السنين » ثم قال في الدلالة على ما فطر عليه عصره من الشغف بأسلوب السمر والمحاضرة (١) « وذكرت من محاسن كل شخص ما يليق به من مكرمة أو نادرة أو شعر ليتفكه به متأمله ولا يراه مقصوراً على « أسلوب » واحد فيمله ، الخ . »

والتزم صاحب « معجم الادباء » في الاستهلال العبارة ذاتها فقال : « فما زلت منذ غذيت بغرام الأدب مشغوفاً بأخبار العلماء ، أسائل عن أحوالهم وأبحث عن نكت أقوالهم » . واستعملها ابن الاثير في تصدير « الكامل » فقال : « أما بعد ، فاني لم أزل محباً لمطالعة كتب التواريخ ومعرفة ما فيها ، مائلاً الى المعارف والآداب والتجارب المودعة في مطاويها ... » (٢) وأضاف ياقوت الرومي في المقدمة : « وجمعت » في هذا الكتاب ما وقع الىّ من أخبار النحويين واللغويين . . . وجعلت « ترتيبه » على حروف المعجم حسب ما اقتضاه « الترتيب » وحكم بوضعه التبويب » . وقال ابن

---

(١) من « حضر وحضرني والحاضر وهو ما يعنيه الغربيون في عصرنا بلفظة « اكتوالييتي » actuality (٢) واستعملها ابن منظور والفيروزابادي وغيرهما .

الأثير : « ... لكن أقول انى جمعت فى كتابي هذا ما لم يجتمع فى كتاب واحد . فابتدأت بالتاريخ الكبير الذى صنفه ابن جعفر الطبري فأخذت ما فيه من جميع تراجمه ، فلما فرغت منه أخذت غيره من التواريخ ... الخ . »

وكذلك اذا رجعنا الى أمهات الكتب العربية فى الأدب والتاريخ نجدها قليلة ، حتى ما حبره بلغاء العرب من الرسائل والمقامات كان خاضعاً لهذه السنة وذلك الذوق المستخلص من أدب السمر والمحاضرة . قال أبو القاسم بن عثمان الحريرى فى تصدير مقاماته : «أنشأتها تحتوى على جد القول وهزله ورقيق اللفظ وجزله ومليح الأدب ونوادره الخ . » قال : « وما قصدت بالاحماض ( الانتقال من أسلوب الى آخر ) فيه الا تنشيط قارئيه » وهى عبارة استعملها ابن خلكان فى كتاب موسوم بفن خاص من التاريخ قال : « والدواعى انما تنبعث لتصفح الكتاب اذا كان مفنناً » وقال بديع الزمان الهمذانى : « وضمنتها ما تشتهى الانفس من لفظ أنيق وسجع رشيق وجد يروق وهزل يشوق ، الخ . »

وهذا الضرب من تهذيب اللغة والتأنق فى استعمالاتها لم يتجاوز هذه النماذج فى بلاغة الأدب العربى . والتطور انما يعترى

الفن لا الصناعة (١)، والاسلوب لا القواعد ، والمعانى لا الالفاظ،
ولكن النفس العربى الذى خضع لقانون الايجاز فى البلاغة لم
يكتسب أية ميزة فى غضون الاطلاع على ثقافات الأمم القديمة .
والعرب فى الأصل لم تشتغل بالحكمة حتى كان العلم يكفل تطور
صناعة التأليف وانفصال الذهن العربى من احراز التقليد . قال المبرّد :
« فانا امام الناس فى زمانى أحلّ مشكلات علم العربية واذا عرضت
لى حاجة الى بعض اخوانى أحجم عن الكتابة اليه لأنى أرتب
المعنى فى نفسى وأحاول أن أصوغه فلا أستطيع ذلك ! » ولما صدر
الجاحظ فى ديوان الرسائل لم يلبث الا ثلاثة أيام ، وهو الذى قال
« لكل زمان نوع من المحنة » وذكر « العى والحَصَر » مما يعترى
اللسان واللسان متعلق بالحافظة . أما العقل أى التفكير فلا يعتريه
الحصر . والجاحظ هو الذى قال « ولم أرَ غاية النحويين الاّ كل
شعر فيه اعراب ، ولم أر غاية رواة الاشعار الاّ كل شعر فيه غريب
أو معنى صعب يحتاج الى الاستخراج ، ولم أر غاية رواة الأخبار الا كل

---

(١) عنى العرب بالصناعة ما نعنيه اليوم بلفظه « فن » art ،
ويريدون بالفن ما يعنيه نقدة الغرب اليوم بلفظة genre أى نوع
واستعملها السيوطى مع كلمة ثقافة بمعناها المصطلح عليه .

شعر فيه الشاهد والمثل » . وذكر صاحب « المثل السائر » : « ان الحريري كتب في أثناء مقاماته رقاعاً في مواضع عدة فجاء بها منحطة عن كلامه في حكاية المقامات . وكان يقال ان الحريري رجل مقامات أي انه لم يحسن من الكلام المنثور سواها ! » وجرى مصنفو العرب على قاعدة التحرج من تطويل المؤلفات وتكثيرها وتوخي الاختصار وإيثار الايجاز . والايجاز من أجلّ صفات البلاغة العربية ، فقيّد الايجاز النفس العربي في الشعر والنثر ، واعتاد العربي ألاّ يطيل وأن يكتفي بالابانة في الكلمة القصيرة وتطرق ذلك بطبيعة الحال الى الصناعة . وكان القُرآن كنموذج فذّ في البلاغة يتبع هذه السنة المتفقة في الأُصل مع المزاج العربي . وفي القرآن كل سنن البلاغة وفيه الايجاز والاتساع والترتيب وما يشبه التبويب من حيث تنوع السوّر . وأكتفي بأن أقول إن القرآن أثّر بلا شك في طريقة التصنيف عند العرب ؟

عبد الحميد سالم

obeikandl.com

# الطبيعة في شعر المتنبي

ملحق بعدد يونية سنة ١٩٣٤

من مجلة «أبولو»

وهي المحاضرة الثانية التي ألقاها الدكتور أحمد زكي أبو شادي

السكرتير العام لندوة الثقافة في نادي

نقابة الصحافة بالقاهرة

لجنة التأليف والترجمة والنشر

obeikandl.com

# الطبيعة في شعر المتنبي

— ٣ —

تناولتُ في محاضرتي السابقة [1] الكلامَ العامَّ عن الطبيعة في شعر المتنبي، وقد مهَّدتُ لذلك بمقدمة طويلة لا غنى عنها في الصلة بين الشاعر الملهم والطبيعة ومنزلة المتنبي من ذلك. وقد قسَّمتُ شعر الطبيعة الى عشرة أقسام حسب أصول النقد الأدبي الحديث وجئتُ بأقرب النماذج الى كلٍّ من هذه الأقسام تسهيلاً لتفهُّمها وتقديرها. ثم استعرضتُ نماذج من أظهر شعر الطبيعة في ديوان المتنبي ووضعته في منزلته النقدية.

وفي هذه المحاضرة أواجه حضراتكم بعرض شامل للطبيعة في شعر المتنبي جميعه مع تحليل فنيّ لهذا الشعر على قدر ما يسمح به الوقت المخصَّص لهذه المحاضرة. وأملي أن تأذن حضرتكم للأدب العربي

---

(١) انظر الملحق بعدد مارس سنة ١٩٣٤ من مجلة «أبولو»

بمتابعة هذه الدراسة التي أهديها الى روح ذلك العبقري الفذ .

* * *

يتمثّل جميع شعر الطبيعة البارز في ديوان المتنبي في نحو ثلثمائة بيت ، ويشوقني كثيراً — ولعله يشوقكم كذلك — متابعة هذا الرّوح في أدب المتنبي منذ صباه لنرى كيف ترعرع ونضج وكيف كانت اتجاهاته ودلالاتها .

إنّ المتنبي ابن الطبيعة : فقد نشأ في أحضانها إذ وُلد في محلة كندة وهي ضاحية لمدينة الكوفة بالعراق واقعة في غرب الفرات وتبعد عن بغداد جنوباً بمائة وأربعين كيلو متراً ، وقد اشتهرت ببساتينها ولا تزال مشهورة بها الى وقتنا هذا . وعلى مقربة منها الرهيمة التي أشار اليها المتنبي في قصيدته الوصفية عند رجوعه من مصر ، وللرهيمة ما لكندة من الشهرة بجمال الطبيعة . فالمتنبي لم ينشأ نشأة بدوية في أول أمره ، ولئن جاس خلال البادية بعد ذلك في طفولته وبعض صباه ليستفيد ما استفاد من لغة فقد أقام بعد ذلك بين الحضر سنين ، فعوامل التفاعل في تكييف مزاجه تكاد تكون متعادلة أو على الأقلّ لا يجوز أن يقال إن عنصر البداوة هو عنصر البيئة المتغلبة عليه ، فان الزمن الذي قضاه في البادية

جفوة ، وليست كندة ولا السكوفة من البادية . وقد أمضى صباه متنقلاً فى ربوع الشام الجميلة والتحق ببلاط سيف الدولة وهو فى الرابعة والثلاثين ، وقد عمّر الى ما بعد الخمسين ، ففرصُ المدنيّة أمامه كانت كثيرة لتتغلب على جفوة البداوة ، لو صحّ أن هذه البداوة أثرت فى نفسه ذلك التأثير البليغ الذى يذهب اليه بعض النقاد . أما رأيي الخاص فهو أن المتنبي من طبيعته مزاجاً قوياً ناضج الرجولة منذ نعومة أظفاره ، وهذا المزاج مستقل الطابع يكاد ينزع بصاحبه الى التأله ، وتنبض ألفاظه بل حروفه بهذه الروح العاتية بحيث تضيع قوتها الساحرة اذا ما نُقلت الى لغة أخرى ، لأن قوة المتنبي الفنية لا تتمثل فى خياله ومعانيه فقط بل تتمشى فى نبرات ألفاظه بصورة مدهشة ، فنحسّ بأن خلفها نفسيةً شاذةً تحاول أن ترتفع فوق مستوى الآدمية وتعبر عن قوانين القدر كأنها منه وهو منها تعبيراً لا نزاع فى حتمه وصولته !

هذه النفس الجبارة المنقطعة النظير لا يمكن من الناحية الشعرية أن تكون صلتها بالطبيعة ضئيلة ، ولو أن دارسي الأدب العربي يعنون بالمراجع الأصلية أى بشعر المتنبي ذاته لما فاتهم الكلام على الطبيعة فى شعر المتنبي ولما ذهب بعضهم الى أن هذا الشعر لا قيمة له إذ أنه فى اعتبارهم متأثر بحياة البداوة وحدها .

لقد تغلغلت الطبيعة في جميع شعر المتنبي استعارة وتشبيهاً ووصفاً برغم اشتغاله بأمور الحياة العملية ، فما بالكم به لو أنه نال من هدوء البال مثل ما نال البحتري وأبو نواس ؟ وقد كان المتنبي فيلسوفاً اجتماعياً بطبيعته ، وزادته خبرته بالناس وبالأيام صرامة فأتى في شعره بالعجب العجاب من مزج الوصف والتصوير بهذه الفلسفة ، فاذا ما أدخل روح الكفاح الحيوي في وصفه لبحيرة طبرية فليس معنى ذلك أنه متأثر بحروب البدو وحياتهم وانما معناه أن الرجل بصير بفلسفة الحياة فهو يمزجها بوصفه للطبيعة . وقد أشرت الى قسوة الطبيعة وتأثيرها في نفوس عدد من الشعراء — أو نظرتهم اليها هذه النظرة — في القسم الثامن من أقسام شعر الطبيعة في محاضرتي السابقة . وهذه النظرة ليست خاصة بالمتنبي فكثيرون من أدباء الشرق والغرب نظروا مثل هذه النظرة الى الطبيعة وغيرهم نظر اليها عكسها ، وكثيرون جمعوا بين النظرتين حسب مناسباتهم النفسية . فلم يكن اللورد تنيسون مثلاً — وهو شاعر العرش في عهد الملكة فكتوريا — بالبدوي المزاج حينما رأى الطبيعة « حمراء الناب والمخلب من الافتراس » red in tooth and claw with ravine وانما تلك هي نظرته الى فلسفة الحياة حينما كتب ذلك . ولا غبار على الشاعر اذا ما تبدلت فلسفته حسب الظروف والمؤثرات فهو قبل

كل شيء معبر وجداني وشعره مرآة نفسه المتجاوبة مع عناصر الحياة .

لنطرح جانباً إذن نظرية تأثير البادية عليه تأثيراً كلياً ، ولنؤمن بأن أدب المتنبي انما هو أدب القوة والسبرمان ، أدب مَنْ يرى أن الدنيا لمن غلبَ ، وأن هذا هو روح الحياة ، فتغلغل ذلك الى صميم شعره في جميع البيئات المختلفة التي امتزج بها . فالمتنبي لم يتعمد اغفال الطبيعة واسقاطها من شعره وانما شغلته عظائم الحياة العملية كما شغلته عن المرأة التي أحبّها ، وما أحب المرأة البدوية لأنها بدوية بل لأنها تمثل الطبيعة الفطرية البعيدة عن التصنع كما يحبها كثيرون منا نحن الحضريين وأخصّ بالذكر أهل الفنون . واذا كان هذا يشير الى شيء فانما الى تطبّع مزاج المتنبي بطابع الطبيعة الحرة القوية التي نشأ في أحضانها وافتتانه بعناصرها الجميلة ، وما الجفوة أو الصلابة التي في نفسه من أثر حياة البادية ، وانما هي من أثر ذلك التحرّر القوي الذي يشعر به ابن الطبيعة المتعالي وقد رآها داعة الصراع فتعلم منها قيمة الرمح والسيف والدم في حياة الانسان ومجده ، إذ أن لها نظير هذه الوسائل في بناء مجدها المتجدّد . وعندي انه سواء أقصد المتنبي الى البادية أم لم يقصد فطبيعة نفسه العاتية منذ صباه كفيلة بتلك النظرة المرّة الى الحياة وتقلباتها وأحداثها ، وهذا أمرٌ يتصل بعلم النفس قبل اتصاله بعلم الاجتماع .

من أول شعر الطبيعة الذى نظمه أبو الطيب قوله من قصيدة فى صباه يمدح محمداً بن عُبَيد الله العلوى المشطّب واصفاً سرعة سيره وهو قاصدٌ الى ممدوحه ، وقد مهّد الى هذه الابيات بالكلام على ناقته :

أشدُّ عصْفِ الرّياح يسبقُهُ — تحتى من خطوِها تأوّدُها (١)

فى مثل ظهر المجَنّ متّصلٍ — بمثل بطن المجنّ قرْدَدُها

مرتمياتٌ بنا الى ابن عُبَيـ — ـد الله غيطانُها وفدفدُها

تأملوا فى خيال المتنبي الفتى الشاعر الوصاف الذى يقول إن تمايُل ناقته فى أهون سيرها (وما يريد الاّ نعله وسرعة عدوه) يسبق أشد عصف الرياح فى فلاة مثل ظهر الترس اجداباً ومثل بطن الترس أرضها المرتفعة لما يتناوبها من تلال ووهاد ، وأن غيطانها وفدفدها أى أراضيها المطمئنة والغليظة المرتفعة ترمى بنا الى هذا التوفيق فى السفر السريع ، وقد مزج هذه العاطفة بما حوله وبحته من مظاهر الطبيعة فى أبيات ثلاثة لاغير ! وهذه القدرة الوصفية والنظرة المستوعبة من فتانا المتنبي وهو لم يتجاوز العشرين

---

(١) تأودها : تميلها . أنظر « شرح ديوان المتنبي » للبرقوقى ، ولعله أبرع الشروح العصرية .

من صنعة لازمته طول حياته فى جميع مناحى شعره وفى نظراته العامة الى الحياة .

والمتنبي كغيره من الشعراء المطبوعين يلجأ دائماً الى الطبيعة يستمد منها ألوانه حتى فيما يبدو لنا أنه نظم صناعى محض، ففى نفس هذه القصيدة لا يفوته أن يقول فى ممدوحه وفى قريش :

شمسٌ ضحاها ، هلال ليلتها  درٌّ تقاصيرها زبرجدُها

وهى تشابيه طبيعية مألوفة ، ولكن المتنبي اللغوى منذ صباه ، الذى يبغض الثرثرة ويعشق الاستيعاب والتركيز والدسامة ، قال عن ممدوحه فى بيت فرد إنه بين قومه كالشمس فى النهار والهلال فى الليل والدّر والزبرجد فى القلادة ، أى هو أفضلهم وأشهرهم وبه زينتهم وفخرهم .

وترون هذه الأوصاف والتشابيه الطبيعية منبثّة فى جميع شعر المتنبي ، ولكن النقاد لا يبحثون عنها أو لا يلتفتون اليها وهيهات أن تجىء هى اليهم عفواً .... أليس هو القائل فى صباه :

شمسٌ اذا الشمسُ لاقتْهُ على فرسٍ

تردَّدَ النورُ فيها من تردُّدِهِ

فهو يقول فى ممدوحه هو شمسٌ اذا رأته الشمسُ وهو يجول

فى ميدانه على فرس متردّداً تردُّدَ النور فى هيولى الشمس لأنه أضوأ منها فالشمسُ تستفيد منـه النور ! وفى ظاهر البيت مبالغة مقيتة ، ولكن عناصر خياله تشعر باندماج شاعرنا فى الطبيعة وهو يستحدث مثلَ هذا المعنى العجيب .

لم تكن للمتنبي قلةُ احتفالٍ بالطبيعة ، فحيثما دعته المناسبة أبدع فى وصفها أو فى الاندماج بها ، ولكن هذه المناسبة قلما وُجِدَتْ لأنه قضى حياته فى شغل شاغل بالمجد والسيطرة ومعارك السيادة . وبرغم هذا فله لفتاتٌ كثيرةٌ الى تشابيه طبيعية ، ولو كان من يصدف بفطرته عن الطبيعة لصدف عن هذه التشابيه . أليس هو القائل فى إحدى الغواني :

غُصنٌ على نقوى فلاةٍ نابتٌ

شمسُ النهار تُقِلُّ ليلاً مُظلِما

فيصف قامةَ الحبيبة بأنها غصنٌ نابتٌ على كثيبَيْ رملٍ ( يعنى ردفيها ) ووجهُها شمسُ النهار تحمل من شعرها ليلاً مظلماً . ومع أن هـذا البيت من التشابيـه المبتذلة فله دلالته فى نفى تعلق المتنبي بالقوة والجبروت فى الطبيعة وانصرافه انصرافاً تاماً عما عدا ذلك وصفاً أو تشبيهاً ، وسنرى نماذج كثيرة مؤيدة لرأيي ، فهو القائل :

كم مهمه قذف قلب الدليل به

قلب المحب قضاني بعد ما مطلا

عقدت بالنجم طرفي في مفاوزه

وحر وجهي بحر الشمس إذ أفلا

انظروا في هذه التشابيه والاستعارات الجميلة والألفاظ الشعرية المنتقاة حتى في لفظ (قذف) بمعنى بعيد بينما البيتان لا يصوران الا حالة من أبسط حالات المسافر في البيداء ، ولكن المتنبي لم ينس الطبيعة في هذه الصورة ، واستعان بالطبيعة في القصيدة نفسها تصويراً لجزع الفارين أمام خيل ممدوحه فقال :

وضاقت الارض حتى كان هاربهم

اذا رأى غير شيء ظنه رجلاً !

وفي هذه الأبيات يرتفع المتنبي الى مستواه الشعري العالي ويترفع عن التقليد الذي نلمحه في مثل قوله : « يلوح بدر الدجى في صحن غرته » وقوله :

خريدة لو رأتها الشمس ما طلعت

ولو رآها قضيب البان لم يمس

وقوله :

لو كانت فيضُ يديه ماء غادية

عزّ القطا فى الفيافى موضعُ اليبس

ولو أن فى هذا البيت لمحة من مبالغات المتنبي تبعده عن التقليد المحض . ولكن اذا اجتمعت العاطفة بالطبيعة فى شعره ، سواء أكانت تلك العاطفة حباً أم بغضاً ، فهو كفيل بكل طريف ، مثل قوله فى هجاء سوار الديلمى :

ولا تُنكرا عَصْفَ الرّياح فانها

قِرى كلِّ ضيفٍ باتَ عند (سوار)

يقول : لا تنكروا شدة هبوب الرياح فانها طعام من بات ضيفاً عند ( سوار ) وهو رجل نزلوا فى المسجد قرب داره فهبّت عليهم الرياحُ ولم يلتفت اليهم ولم يقرهم .

وهذه الطبيعة المنبثة فى شعر المتنبي يمكنكم تتبّعها فى أبياته كثيرة له منذ صباه الى كهولته فتجدونها ذات روح قوية واحدة فى الوجدانيات وذات صبغة تقليدية فى بعض مدائحه ، وهى لا تحتاج الى تعليق الا فى بعض المواضع ، فروائعها الفنية ناطقة فى غير بيان .

يقول في سياق غزله :

حشاى على جمر ذكىٍّ من الهوى
وعيناى في روض من الحسن ترتعُ

ولو حُمّلتْ صُمُّ الجبال الذى بنا
غداةَ افترقنا أوشكتْ تتصدّعُ

ويقول :

فصيحٌ متى ينطق تجد كلّ لفظةٍ
أصولَ البراعاتِ التى تتفرّعُ

بكفّ جوادٍ لو حكتها سحابةٌ
لما فاتها في الشرقِ والغربِ موضعُ

وليس كبحرِ الماءِ يشتقُّ قعرَهُ
الى حيث يَفْنى الماءُ حوتٌ وضفدعُ

فهو يعتمد على مادة الطبيعة من روض وجبال وسحابة وبحر لتلوين أمداحه ، أو لخلق أرضية لها ، أو لتصوير ظروفه وأحواله ، مثل قوله في وصف العيس وسفره :

إذا الليلُ وارانا أرتنا خفافُها
بقدح الحصى ما لا ترينا المشاعلُ

كأنى من الوجناء فى ظهر موجة
رمتْ بى بحاراً ما لهن سواحلُ

وفى هذين البيتين يتجلّى خيالُ المتنبى الجرىء فى أوصافه ، ولستُ أدرى ماذا كان يقول لو أنه عاش الى عصرنا فشهد السيارة والطيارة والراديو ؟ !

ومن هذا الوصف المفتّن يسفّ حينما يقول :

ترنو الىّ بعين الظبى مجهشة
وتمسحُ الطّلّ فوق الورد بالعنم

ولكنه الدليل المتكرّر على لجوء المتنبى الى الطبيعة فى أوصافه المتسامية والمتدانية على السواء .

يقول أبو الطيب :

لولا ظباء عدىٍّ ما شُغفْتُ بهم
ولا بربربهمْ لولا جآذرُهُ

دخلتها وشعاعُ الشمس متّقدٌ

ونورُ وجهك بين الخلق باهرُهُ

في فيلقٍ من حديدٍ لو قذفتَ به

صرفَ الزمانِ لما دارت دوائرُهُ

ويقول:

قد حوتَ في بشرٍ في تاجه قمرٌ

في درعهِ أسدٌ تدمى أظافرُهُ

وفي كل هذا تدخل مادة الطبيعة. ومنها يستمد القول:

الى الثمرِ الحلوِ الذي طيّءٌ له

فروعٌ وقحطانُ بنُ هُودٍ لها أصلُ

وقوله

على سابحٍ مَوْجُ المنايا بنحرهِ

غداةَ كأنّ النبلَ في صدرهِ وَبْلُ

وقوله

فرأيتُ قرنَ الشمسِ في قمرِ الدُّجى

متأوّداً غُصْنٌ به يتأوّدُ

obeikandl.com

وقوله :

فطعنتهم حسداً أراهم ما بهم
فتقطعوا حسداً لمن لا يحسدُ

حتى انثنوا ولو انّ حرَّ قلوبهم
في قلبِ هاجرةٍ لذابَ الجلمدُ

وقوله في السيف المخضب بالدماء :

ريّانُ لو قذفَ الذي أسقيتَهُ
لجرى من المهجاتِ بحرٌ مزبدُ

وقوله :

رأت وجهَ مَن أهوى بليلٍ عواذلي
فقلن نرى شمساً وما طلع الفجرُ

متى ما يُشِرْ نحو السماء بوجهه
تخرُّ له الشِّعرَى وينخسفُ البدرُ

وقوله :

يجدُ الحمامُ ولو كوجدي لانبرى
شجرُ الأراكِ مع الحمام ينوحُ

وقوله :

وعلى التراب من الدماء مجاسد

وعلى السماء من العجاج مسوح

وهو بيت قوى من الوصف ، والمجاسد هى الثياب المصبوغة بالجساد أى الزعفران والعجاج هو الغبار . نعم هو بيت قوى من الوصف الدقيق الخيال وإن قلت كلماته .

وقوله :

وذكى رائحة الرياض كلامها

تبغى الثناء على الحيا فتفوح

وقوله :

غرّ طلعت عليه طلعة عارض

مطر المنايا وابلا ورذاذا

وقوله :

من تقشعر الأرض خوفاً إذا مشى

عليها وترتج البلاد الشواهق

obeikandl.com

فتى كالسحاب الجون يُخشى ويُرتجى

يُرجّى الحيا منها وتُخشى الصواعقُ

وفى هذين البيتين طابع أبى الطيب فى التهويل .

وقوله :

وإنّ الماءَ يجرى مِن جمادٍ

وإنّ النارَ تخرجُ مِن زنادِ

وقوله :

كأنّها الشمسُ يُعيي كفَّ قابضه

شعاعُها ، ويراه الطرفُ مقتربا

وهذا من أجمل الأوصاف المستمدّة من صميم الظواهر الطبيعية .

وقوله فى القصيدة ذاتها :

بياضُ وجهٍ يُريك الشمسَ حالكةً

ودُرُّ لفظٍ يُريك الدُّرَّ مَخْشَلَبا

وهنا تتجلى مبالغة الصناعة لا وثبة الخيال الشارد .



obeikandl.com

وقوله :

وإذا نظرتَ إلى الجبال رأيتَها

فوق السهول عواصلاً وقواضبا

وإذا نظرتَ الى السهولِ رأيتَها

تحتَ الجبال فوارساً وجنائبا

وعجاجةً تركَ الحديدُ سوادَها

زنجاً تبسّمَ أو قذالاً شائبا

فكأنما كُسِيَ النهارُ بها دُجَى

ليلٍ وأطلعتْ الرماحُ كواكبا

أسدٌ فرائسُها الأسودُ يقودُها

أسدٌ تصيرُ له الأسودُ ثعالبا

وفي كلّ هذه الأبيات تتراءى أو تتحرك صورٌ أخّاذة من الطبيعة بين جماد وحيوان .

وقوله في القصيدة ذاتها :

كالبدرِ من حيث التفتّ رأيتَهُ

يُهدي الى عينيكَ نوراً ثاقبا

obeikandi.com

كالبحر يقذف للقريب جواهراً

جوداً ويبعث للبعيد سحائبا

كالشمس في كبد السماء وضوؤها

يغشى البلاد مشارقاً ومغاربا

وقوله :

بفرع يعيد الليل والصبح نير

ووجه يعيد الصبح والليل مظلم

وقوله :

ألذ من الصهباء بالماء ذكره

وأحسن من يسر تلقاه معدم

وأغرب من عنقاء في الطير شكله

وأعوز من مسترفد منه محرم

وأكثر من بعد الأيادي أياديا

من القطر بعد القطر والوبل مثجم

وقوله :

أكلت مفاخرك المفاخر وانثنت

عن شأوهن مطي وصفي ظلعا

وجرانَ جرىَ الشمس فى أفلاكها
فقطعن مغربَها وجُزنَ المطلعَـا

وقوله :

وربما يُضاحكُ الغيثُ فيه
زَهَرَ الشكرِ من رياضِ المعالى
نفحتنا منه الصَّبا بنسيمٍ
ردَّ روحاً فى ميتِ الآمالِ

وقوله :

حَبَّذا ماءُ رجلهِ وانضحَـا فى الـ
ـمُدْنِ تأمَنْ بوائقَ الزّلزالِ
رجلٌ طِينُـهُ من العنبرِ الور
دِ وطينُ الـعِبادِ من صَلْصَـالِ
فبقيّاتُ طينهِ لاقتْ الماءَ
فصارت عُـذوبةً فى الزلالِ
وبقايا وقارهِ عافت النَّـا
سَ فصارتْ ركانةً فى الجبالِ

وقد وُفِّقَ أبو الطيب في هذه الأبيات نهاية التوفيق صياغة وموسيقى وخيالاً وتصويراً بغضّ النظر عن المبالغة التي قد لا ترضينا .

ومن الأمثلة الأخرى لاستغلال مادة الطبيعة في مختلف مناحي شعره قوله :

أنا صخرةُ الوادي إذا ما زُوحمتْ
وإذا نطقتُ فانني الجوزاءُ

وقوله في القصيدة ذاتها :

لم تَلْقَ هذا الوجهَ شمسُ نهارِنا
إلاّ بوجهٍ ليس فيه حياءُ

فبأيِّما قَدَمٍ سعيتَ الى العُلى
أدُمُ الهلالِ لأخمَصَيْكَ حِذاءُ

وقوله في بساطةٍ ساحرةٍ :

نطقَتْ بسؤددك الحَمامُ تَغَنِّياً
وبما تجشّمها الجيادُ صَهيلاً

وقوله وهو من غريب المعاني :

قرًا تُرى وسحائبين بموضع

من وجهه ويمينه وشماله

سقت الدماء بجوده لا بأسه

كرماً لأنّ الطيرَ بعضُ عياله !

وقوله :

ليلُها صُبْحُها من النار والإصـ

ـباحُ ليلٌ من الدخان تمامُ

وهو وصفٌ بديعٌ لمن شُغِلوا بالكرم ، فليل التمام هو أطول ليالي الشتاء ، أي أنهم يوقدون النار للقرى ليلاً ونهاراً فيصير ليلهم صبحاً بضوئها ونهارُهم ظلمة بدخانها .

وقوله :

هاتِكَ الليلُ والنهارُ فلو تنـ

ـهاهما لم تَجُزْ بكَ الأيّامُ

وقوله وهو من غريب الوصف الذي كثيراً ما فُتِن به أبو الطيب :

يَشتاقُ عيسَهُمُ أذنى خلفها

تَوهّمُ الزفراتِ زجرَ حُداتِها

وكأنها شجرٌ بدت لكنّها
شجرٌ جنيتُ الموتَ من ثمراتها !

وقوله :

أعزميّ طال هذا الليلُ فانظرْ
أمنكَ الصبحُ يفرقُ أن يؤوبا
كأنّ الفجرَ حِبٌّ مستزارٌ
يُراعي من دُجُنّتِهِ رقيبا
كأنّ نجومه حَلْيٌ عليه
وقد حُذِيَتْ قوائمُهُ الجَبوبا
كأنّ الجوَّ قاسى ما أقاسي
فصار سوادُه فيه شُحوبا
كأنّ دُجاهُ يجذبُها سهادي
فليس تغيبُ إلا أن يغيبا

وهذا من آيات الشعر الوجداني الذي تمتزج الطبيعة به امتزاجاً دقيقاً .

obeikandl.com

وقوله من نفس القصيدة نازعاً الى الاغراب فى الوصف :

مطايا لا تذل لمن عليها
ولا يبغى لها أحد ركوبا
وترتع دون نبت الأرض فينا
فما فارقتها الا جديبا

وقوله أيضاً :

قصا فالأسد تفزع من يديه
ورق فنحن نفزع أن يذوبا
أشد من الرياح الهوج بطشاً
وأسرع فى الندى منها هبوبا

وقوله مفتناً فى الوصف افتنانه البالغ :

وذو لجب لا ذو الجناح أمامه
بناج ولا الوحش المثار بسالم
تمر عليه الشمس وهى ضعيفة
تطالعه من بين ريش القشاعم

obeikandi.com

اذا ضَوْءُها لاقى من الطير فُرْجة
تدوّر فوق البيض مثلَ الدراهمِ

وقوله :

حملتُ اليه من لساني حديقةً
سقاها الحِجى سقيَ الرياضَ السحائبِ

وقوله :

ولكنَّ الغيوثَ اذا توالتْ
بأرضِ مُسافرٍ كَرِهَ الغماما

وقوله :

أرى الناسَ الظلامَ وأنتَ نورٌ
وإني منهم لا ليكَ عاشِ
بُليتُ بهم بلاءَ الوردِ يَلقى
أنوفاً هنَّ أولى بالخشاشِ

وقوله :

سبحانَ مَن خارَ للكواكب بالبُعْـ
ـدِ ولو نُلنَ كُنَّ جدواهُ

لو كان ضوءُ الشموسِ في يدِهِ
أضاعَهُ جودُهُ وأفناهُ !

وقوله :

الشمسُ قد حلَّتِ السماءَ وما
يحجبُها بُعْدُها عن الحَدَقِ

وقوله :

سِرْ حلَّ حيثُ تحلُّهُ النوّارُ !

وقوله :

بَدَا وله وَعْدُ السحابةِ بالرَّوى
وَصَدَّ وفينا غُلَّةُ البلدِ المَحْلِ

وهو من مأثور شعره .

وقوله :

إنَّ الرياحَ اذا عَمَدْنَ لناظرٍ
أغناه مقبلُها عن استعجالِهِ !

وقوله :

ووجهُ البحرِ يُعرَفُ من بعيدٍ
اذا يَسْجُو فكيف اذا يموجُ ؟!

وقوله الشائق الرائع :

وجيشٍ يثنّي كلَّ طودٍ كأنه

خريقُ رياحٍ واجهت غصناً رطبا

كأنَّ نجومَ الليلِ خافت مُغارَهُ

فمدّتْ عليها من عجاجتها حُجْبا !

وقوله :

إذا كان شمُّ الرَّوحِ أدنى إليكمو

فلا برِحتْني روضةٌ وقبولُ

وما شَرَقي بالماءِ إلاّ تذكُّراً

لماءٍ به أهلُ الحبيبِ نزولُ

يحرّمُهُ لَمعُ الأسنةِ فوقَهُ

فليس لظمآنٍ إليه وصولُ

أما في النجوم السائراتِ وغيرها

لعيني على ضوءِ الصباح دليلُ

ألم يرَ هذا الليلُ عينيكِ رؤيتي

فتظهرَ فيه رقّةٌ ونحولُ

obeikandl.com

لقيتُ بدربِ القلّةِ الفجرَ لقيةً
شفتْ كبدي والليلُ فيه قتيلُ
ويوماً كأنّ الحسنَ فيه علامةٌ
بعثتِ بها والشمسُ منكِ رسولُ

وهي من حسناته الناطقة .

وقوله :

سحائبُ يَمْطُرْنَ الحديدَ عليهمِ
فكلُّ مكانٍ بالسيوفِ غسيلُ
ورُعْنَ بنا قلبَ الفُراتِ كأنما
تَخِرُّ عليه بالرجال سُيولُ
يطارد فيهِ موجَهُ كلُّ سابحٍ
سواءٌ عليه غمرةٌ ومسيلُ
تراه كأنّ الماء مرَّ بجسمه
وأقبلَ رأسٌ وحدَهُ وتليلُ !

وقوله :

وقد زعموا أنّ النجومَ خوالدٌ
ولو حاربته ناح فيها الثرا كلٌ !

وقوله :

طلبتهمو على الأمواهِ حتّى
تخوّفَ أن تفتّشه السّحابُ

وتسأل عنهمو الفلواتُ حتى
أجابك بعضُها وهو الجوابُ !

وقوله :

شرفٌ ينطح النجومَ بروقَيْـ
ـهِ وعزٌّ يقلقل الأجبالا

وقوله : فإنّ فى الخمر معنًى ليس فى العنبِ !

وقوله :

كأنّ على الجماجمِ منه ناراً
وأيدى القوم أجنحةُ الفَراشِ

كأنّ جوارىَ المُهجَات ماءٌ
يعاودها المهنّدُ من عُطاشِ !

obeikandl.com

وقوله :

أتاهم بأوسع من أرضهم
طِوالِ السبيبِ قِصارِ العُسُبْ
تغيبُ الشواهقُ في جيشهِ
وتبدو صغاراً إذا لم تَغِبْ
ولا تَعْبُرُ الريحُ في جوِّهِ
إذا لم تخطَّ القنا أو تَثِبْ !

وقوله :

لو الفلكُ الدوَّارُ أبغضتَ سعيه
لعوَّقه شيءٌ عن الدورانِ !

وقوله :

عفيفٌ تروق الشمسَ صورةُ وجهه
فلو نزلتْ شوقاً لحاد الى الظلِّ

وقوله :

فليتَ يُرينا الوردُ إنْ شكا يَدَهُ
أحسنَ مِنْهُ مِنْ جُودِها سَلِمَا

obeikandl.com

ولا أريد أن أسهب أكثر من هذا استدلالاً على غنى المتنبي بمادة الطبيعة في شعره ، وقدرته البارعة على استغلالها ، وشعوره الدقيق بمعاني النور والظلّ وبالتجاوب الحيويّ بين الكائنات . ولكن المتنبي المتألّه قدّر أن الطبيعة الجبارة والحياة القوية توأمان ، فعنى بالحياة عناية العبقريّ الفنان ، وجمع بينها وبين مظاهر الوجود الأخرى في فلسفته العمليّة المستوعبة ، فاذا بروح الطبيعة في شعره وسيلةٌ وغايةٌ في آنٍ ، وبهذا يمتاز المتنبي عن كثيرين من الشعراء الذين يصفون الطبيعة وصفاً لا ينفذ الى معانيها ولا يتناول ما وراء مظاهرها ، وكأنهم أمامها بمعزل تام عن عوامل الحياة . أما المتنبي فطرازٌ مستقلٌّ ومدرسةٌ قائمةٌ بذاتها في كلّ ما نضحت عنه عبقريته من شعر الطبيعة ، فشغلانه بها شغلانٌ بهموم الحياة وفلسفتها العملية ، ولذلك يعطينا أبو الطيب دائماً ذلك المزيج الفريد الذي عُرِفَ به والذي تُنكر فيه الشاعرية وتُقدّس في آنٍ قياساً على تقسية دارسيه ومبلغ تجاوبهم الشعري معه وعرفانهم لأسرار نفسيته ورموز لغته .

وفي جميع هذه الشواهد التي ذكرتُها تلاحظون حضراتكم أن روح أبي الطيب هي هي متى جاء شعرُه عن طبعٍ لا عن صناعةٍ ، ويختلف بين المتانة والجزالة والسهولة حسب مناسباته وموضوعاته

فهو ليس أسير البداوة ولا غيرها في شعره وانما هو سلطان طبعه ومالك لغته . ولا نعني بشيء من هذا نفي تأثير البداوة في جانب من شعر المتنبي كما أثّرت في غيره من الشعراء ، وإنما ننفي حصر شعره في عناصرها ، ونريد أن نقرّر أن الصلابة أو الجفوة المحسوسة في كثير من شعره انما هي ظاهرة نفسه السوداوية المزاج ، الصارمة المتطلعة الى مثل أعلى بعيد ، محتقرة كلّ ما حولها من شؤون الحياة المألوفة . واذا أسلس المتنبي أحياناً الى أنس بيئته فبهات أن تتجلى الجفوة في شعره . مثال ذلك أوصافه البديعة في مجالس بدر بن عمار ( من ١٣٠ — ١٣٥ من ديوانه ، طبعة مكتبة صادر ببيروت سنة ١٩٢٦ م . ) وحسبنا أن نذكر منها على سبيل المثال هذه الأبيات إذ جلس بدر يلعب بالشطرنج وقد كثر المطر فقال أبو الطيب :

ألم ترَ أيها الملكُ المُرجّى
عجائبَ ما رأيتُ من السّحاب
تشكّى الأرضُ غيبته اليه
وترشف ماءه رشفَ الرُّضاب !

وهو من شعر الطبيعة الجميل . وقد ذكرتُ لحضراتكم أمثلةً عديدة لاستقلال ومنها السخيف ومنها الرائع ، وقد رأيتم أنّ

بعض هذه النماذج غث وبعضها سمين ومنها الرائع ، ولكن كل ما يعنيني توكيده هو أن أبا الطيب في أكثر أوقاته انصرافاً عن الطبيعة على ما يقال لم يكن منصرفاً عنها ، فاتصاله بها دائم على أي حال في صورة من الصور ، وهذا مما يعزز نظريتي التي ذكرتها في محاضرتي السابقة من الصلة الوثيقة بين الطبيعة وبين كل شاعر مطبوع مهما شغلته شواغل الحياة عن التفرغ لتقديسها .

ولعلكم توافقونني على أن ديباجة المتنبي تكاد تكون واحدة في جميع شعره من حيث القوة والمتانة ، فقد كان نضوجه مبكراً ، وشعر صباه المأثور يكاد لا يُعرف من غيره لولا قرائن المناسبات والموضوعات . وليس معنى هذا أن شعر المتنبي لم يختلف بين الالتواء والاستقامة وبين الشدّة واللين في ديباجته حسب ظروفه ومؤثراته المتباينة ومن بينها حالته الصحية والنفسية ، ولكن غرضي أن عبقريته الشعرية كانت مبتكرة وأن اسفافه النظمي لم يكن الا وليد الصناعة الاضطرارية ، وليس هذا الاسفاف قرين زمن معين بل هو يُلمح في نفس الرائع من قصيده منذ صباه الى كهولته فاذا تخلى أبو الطيب عن الصناعة وأطلق لشاعريته العنان فهو الشاعر المفلق دائماً .

له مَنَنٌ تُفني الثَّناءَ كأنَّما
به أقسمتْ أن لا يُؤدَّى لها شكرُ !

* * *

لا يختلف اثنان فى أن أبا الطيب المزهو بمروءته، المتعالى بنفسه، المتطلع الى « ما يجلّ عن التسمية » لم يكن فى أىّ وقت بالذى يصرف ذهنه عن هذه المطامح المستولية عليه ، ومع ذلك فقد كان يواجه الطبيعة فى فترات مواجهة الاعجاب الذى لا يلبث أن يذكره بمهامه الكبرى . وأبو الطيب له دائماً النظرة المستوعبة التى تجمع شتات الأشياء والحياة ومتناقضاتها فى لمحة واحدة . أليس هو القائل مخاطباً سيف الدولة وواصفاً قتله الأعداء فوق جبل الأحيدب ببلاد الروم :

نثرتَهم فوق (الأُحَيْدِبِ) كلِّهِ
كما نُثِرَتْ فوق العروسِ الدراهمُ

ومَنْ غير أبى الطيب يستطيع أن يجمع بين وطيس القتال وبهجة العرس فى لمحةٍ واحدةٍ ؟ ! وكم وراء هذا البيت من معانٍ مُشعرةٍ بفلسفة الحياة المتناقضة يفهمها أو يلمحها كلُّ من يتذوّقه

بنظرة شعرية ، خلافاً لمن لا يعرفون من الشعر سوى خفقة العاطفة أو ثورة الخيال .

بهذه النفسية والمزاج وصف أبو الطيب ( جبال لبنان ) من قصيدة يمدح بها أبا عليّ هرون بن عبد العزيز الأوراجيّ الكاتب :

بيني وبين أبي عليّ مثله

شمُّ الجبالِ ومثلهنّ رجاءُ

وعقابُ لبنانٍ وكيف بقطعها

وهو الشتاءُ وصيفهنّ شتاءُ

لبسَ الثلوجُ بها عليّ مسالكي

فكأنها ببياضها سوداءُ

وكذا الكريمُ إذا أقامَ ببلدةٍ

سال النضارُ بها وقام الماءُ

جمدَ القطارُ ولو رأته كما ترى

بُهتت فلم تتبجّس الأنواءُ !

وهذا من أبدع ما وُفّق اليه المتنبي من وصف الطبيعة ، الجامع كذلك للعاطفة سواء أكانت حقيقية أم متمثلة ، ولإكبار ممدوحه

مع خيال شعرىّ سليم وموسيقى جيدة ايقاع . ولن ينقص من قدره ما نراه فى هذا الشعر من التهويل ، فهذه هى فطرة المتنبى ولو جاءت من غيره لكانت متكلّفة ، ولكننا نستسيغها منه لأنها لا تشعرنا بأىّ تكلف بل هى من صميم نفسه الشاعرة .

ووصف أبو الطيب ( بحيرة طبرية ) فى احدى مدائحه لعلىّ بن ابراهيم التّنوخى فقال :

لولاكَ لم أترك البحيرةَ ، والغو
رُ دفيءٌ وماؤُهـا شبمُ

والموجُ مثلُ الفحولِ مُزبدةً
تَهْدِرُ فيها وما بها قطمُ

والطّيرُ فوقَ الحَبابِ تحسَبُها
فُرْسانَ بُلْقٍ تخونُها اللجُمُ

كأنّها والرّياحُ تضربُها
جيشا وغًى هازمٌ ومنهزمُ

كأنّها فى نهارها قمرٌ
حفَّ به من جنانها ظُلَمُ

تَفَنَّتْ الطيرُ في جوانبها
وجادتِ الأرضَ حولها الدِّيَمُ

فهي كماويّة مطوّقة
جُرِّدَ عنها غشاؤها الأدَمُ

يَشينها جريُها على بلدٍ
تشينه الأدعياء والقزَمُ !

وفي مستهلّ هذه الأبيات يعترف أبو الطيب بتعلقه بالطبيعة لولا شواغل المعيشة ، ونظرته الوصفية هي نظرةُ الفيلسوف لا نظرة البدويّ القحّ ، بعكس البحتري في وصفه بركة المتوكل فهو وصفٌ خياليّ لطيفٌ ولكنه مجرّدٌ عن روح المتنبي الفلسفية . فاذا دعت الفلسفةُ الصارمةُ في شعر أبي الطيب الى مثل تلك التعابير فهي ابنتها وليست ابنة البداوة الساذجة ، ويخيل اليّ أن جميع العناصر التي ألفت شاعرية المتنبي تعاونت على ابراز تلك الأبيات الوصفية الرائعة : فهي بدوية حضرية ، وهي مزيجٌ من وصف وفلسفة وعاطفة ، وهي صورةٌ من السخط والرضى ، وهي على بساطتها الظاهرة عميقةُ الاحساس دقيقةُ التعبير . وهذه الصفة الجامعة — كما ذكرتُ قبلاً — هي الصفة الغالبة على شعر أبي الطيب ، فهو أبعد ما يكون

عادة عن البساطة والسذاجة ، وحتى شعره الذى قد يراه السطحيون بعيداً عن الروح الشعرية وليس الا نظماً سخيفاً هو أعمقُ مما يلوح. خذوا قوله مثلا :

فلا مجْدَ فى الدنيا لِمَنْ قلَّ مالُهُ

ولا مالَ فى الدنيا لِمَنْ قلَّ مجدُهُ

فان القارئ السطحى قد لا يرى فى هذا البيت غير كلام خبرى لا شاعرية وراءه ، ولكنى ما قرأته الا وتخيّلتُ توأمين بجوار بعضهما على حالة متماثلة من البؤس ولسان أحدهما يقول : «إنه المجد الذى قلّ ماله فذاق الهوان» ، ولسان الآخر يقول : «إنه المال الذى قلّ مجدُهُ فذاق الهوان» . . . هذه هى الصورة التى أتخيلها كلما قرأت هذا البيت لأبى الطيب ، وأنا بتخيلها أتذوّق هذا الشعر ، وانعدام تخيّلها لدى غيرى يجعله لا يستسيغه ، وكم من أحكام طائشة أساسُها ابتعاد النقاد عن الاندماج فى نفسيات من ينقدونهم ، وهكذا يفوتهم الشعر التصويرى الفلسفى الذى تغنى فيه الاشارة عن العبارة مكتفين بالظاهرة البسيطة مبتعدين عما خلفها من التصوير الشعرى .

* * *

ما ألطفَ أبا الطيّبِ فى تشابيهه الطبيعية حين يقول :

قطف الرجالُ القولَ حين نباتِهِ
وقطفتَ أنت القولَ لمّا نوّرا

والطف منه ( وصفه لِشعْبِ بوّان ) الذى أشرتُ اليه فى محاضرتى السابقة وهو يُعَدّ من الوصف الخالص للطبيعة ولكن نفسه العربية الطموحة لم تشغل به وحده فاستدركه وقال :

إذا غنّى الحمامُ الوُرْقُ فيها
أجابتْه أغانىُّ القِيانِ

ومَنْ بالشِّعْبِ أحوجُ مِنْ حمامٍ
اذا غنّى وناحَ الى البَيانِ

وقد يتقاربُ الوصفانِ جداً
وموصوفاهُمَا متباعدانِ

يقولُ بِشِعْبِ بوّانٍ حِصَانى :
أعن هذا يُسَارُ الى الطِّعَانِ ؟ !

أبوكم آدمٌ سَنَّ المعاصى
وعلَّمكم مفارقةَ الجِنَانِ

obeikandl.com

فأين أين البحترى على جلالة قدره من هذه الروح الفلسفية التى لا تنسيها مشاهدُ الطبيعةِ التغلغلَ فى صميمها ؟

وعلينا أن ننتقل الى وصفه ( النيروز ) فى أرض فارس فى أبيات قليلة ــ فيها كلّ الغنى ــ من قصيدة يهنئ بها ابنَ العميد أبا الفضل محمد بن الحسين وزير ركن الدولة :

جاءَ نيروزُنا وأنتَ مُرادُهْ
وورَتْ بالذى أرادَ زِنادُهْ

هذه النظرةُ التى نالها منـ
ـكَ الى مثلها مِن الحولِ زادُهْ

ينثنى عنكَ آخرَ اليومِ منه
ناظرٌ أنتَ طرفُهُ ورقادُهْ

نحن فى أرضِ فارسٍ فى سُرورٍ
ذا الصباحُ الذى نرَى ميلادُهْ

عظّمتْهُ ممالكُ الفُرْسِ حتى
كلُّ أيامِ عامه حُسّادُهْ

ما لبسنا فيه الأكاليلَ حتى
لبستها تلاعُهُ ووهَادُهْ

والمتنبي يكتفي بخطوط قليلة لرسم الصورة التي يريدها ، وحسب حضراتكم أن تتأملوا في البيت الأخير الذي يشعركم فوراً بمختلف الأصباغ والرياحين وبصورة التجديد التي تجلت فيها الطبيعة كما تجلى فيها أبناؤها الفرحون بها ، وقد حصر دلالته على ذلك في اشارته الى « لبس الأكاليل » .

وما دمنا قد أشرنا الى النيروز فلا يجوز أن تفوتنا الاشارة الى وصف المتنبي ( الربيعَ ) — ربيع المسافر — من قصيدة يودّع بها ابن العميد عند مسيره الى عضد الدولة . قال :

كفانا الربيعُ العيسَ مِنْ بركاتِهِ
فجاءته لم تَسْمَعْ حُدَاءً سوى الرَّعْدِ

إذا ما استحبنَ الماءَ يَعْرِضُ نفسه
كرِعْنَ بِسِبْتٍ في إناءٍ من الوَرْدِ

كأنّا أرادتْ شُكرَنا الأرضُ عندهُ
فلم يُخْلِنا جوٌّ هَبَطْناهُ مِنْ رِفْدِ

لنا مَذهبُ العُبّادِ في تركِ غيرِه
وإتيانِه نبغي الرغائبَ بالزُّهْدِ
رَجَوْنا الذي يرجون في كلِّ جنّةٍ
بأرجانَ حتى ما يئسنا من الخُلْدِ !

وفي هذه الأبيات يقدّم لنا المتنبي نماذجَ من شعره الأصيل ، ولكنّ له نفس طابعه المألوف من الاكتفاء بالاجمال الذي لا ينافي التغلغل الى روح موضوعه ، ومن الجمع بين أكثر من غرضٍ واحدٍ في تعبيره .

وقد صحبَ المتنبي الأمير أبا محمد فأتحفنا بأوصاف طبيعية شائقة كقوله في وصف كفردِيس :

وزيارةٍ عن غيرِ مَوْعِدْ
كالغُمْضِ في الجفْنِ المُسَهَّدْ
مَعَجَتْ بنا فيها الجيا
دُ مع الأمير ( أبي محمدْ )
حتى دخلنا جنّةً
لو أنّ ساكنها مُخَلَّدْ

خضراءَ حمراءَ الترا
بِ كأنّها في خدِّ أغيدْ
أحببتُ تشبيهاً لها
فوجدتُه ما ليس يُوجَدْ
وإذا رجعتَ الى الحقا
ئقِ فهي واحدةٌ لأوحدْ !

وقال فيه أيضاً :

ووقتٍ وفَى بالدهرِ لي عند سيِّدٍ
وَفَى لي بأهليهِ وزاد كثيرا
شربتُ على استحسانِ ضوءِ جبينه
وزهرٍ ترَى الماء فيه خريرا
غدا الناسُ مثليهم به لا عدمتُهُ
وأصبح دَهْرِي في ذَرَاهُ دُهُورَا !

وتعذَّرَ المرعى على مُهْرِ أبي الطيب فوصف ذلك كما وصف الثلج بأرجوزةٍ بديعةٍ من أحسن شعر الطبيعة في معانيها وهي التي يقول في مطلعها :

ما للمروجِ الخُضْرِ والحدائقِ

يشكو خَلاهـا كثرةَ الموائقِ

أقام فيها الثلجُ كالموافقِ

يَعْقِدُ فوقَ السِّنِّ ريقَ الباصقِ

ثم مَضَى ، لا عاد مِنْ مُفارقِ

بقائدٍ مِن ذوْبِهِ وسائقِ ؟!

وهى جديرة بدراسة حضراتكم ، ففيها شواهد كثيرة على ما ذكرتهُ من خصائص شعر الطبيعة لدى أبي الطيب . ومن هذا القبيل أرجوزته فى وصف الصيد التى يقول فى مطلعها :

وشامخٍ مِنَ الجبالِ أقْوَدِ

فَرْدٍ كيأفوخِ البعيرِ الأصيدِ

يُسارُ مِنْ مَضيقِهِ والجَلْمَدِ

فى مِثْلِ مَتْنِ المَسَدِ المُعَقَّدِ

ومن هذا القبيل أيضاً أبياته فى وصف بازٍ أطلقه أبو العشائر على حجلة فأخذها ، ومطلعها :

وطائرةٍ تتبّعُها المنايا
على آثارِها زَجَلُ الجَناحِ
كأنَّ الريشَ منه في سهامٍ
على جسدٍ تجسَّمَ مِنْ رياحِ

وليس بأقلّ منها روعة تعليقه على وصف أحد الشعراء لبركة أبي العشائر إذ قال أبو الطيب من أبيات :

لَئن كان أحسنَ في وصفِها
لقد فاته الحُسْنُ في الوصفِ لكْ
لأنكَ بحرٌ ، وإنّ البحارَ
لتأنَفُ مِنْ حالِ هذي البِرَكْ !

ويجب أن لا ننسى أن وصف الجواد والأسد وآفات الطبيعة كالملاريا هو من صميم شعر الطبيعة ، كما أن وصف السكران أو البحر أو العاصفة هو كذلك من شعر الطبيعة الصميم ، وقد أجاد أبو الطيب في كل ذلك إجادةً يخيّل الينا أنه ما بعدها إجادة . أليس هو القائل في وصف جواده :

obeikandl.com

ويوم كليلِ العاشقين كمنتُهُ

أراقبُ فيه الشمسَ أيّانَ تغربُ

وعيني الى أذنيْ أغرّ كأنه

من الليلِ باقٍ بين عينيه كوكبُ

له فضلةٌ عن جسمهِ في إهابهِ

تجيءُ على صدرٍ رحيبٍ وتذهبُ

شققتُ به الظلماءَ أدني عِنانهُ

فيطغى وأرخيهِ مراراً فيلعبُ

وأصرعُ أيّ الوحشِ قفّيتهُ به

وأنزلُ عنه مثلَهُ حين أركبُ

وما الخيلُ إلاّ كالصديقِ قليلةٌ

وإنْ كثرتْ في عينِ مَنْ لا يجرّبُ

إذا لم تُشاهِدْ غيرَ حُسْنِ شياتها

وأعضائِها فالحسنُ عنكَ مغيّبُ !

وكأنه يعرف أسرار تقسيمة الجواد أدقّ معرفةٍ وله الخبرة كل الخبرة بدقائق الجمال في صفاته وحياته :

ويقول في وصف الأسد مادحاً فروسية بدر بن عمّار :

أمعفّرَ الليثِ الهِزَبْرِ بسَوْطِهِ
لمنْ ادّخَرْتَ الصارمَ المصقولا ؟ !

وقعتْ على الأرْدُنّ منه بَليّةٌ
نُضِدَتْ بها هامُ الرّفاقِ تلولا

وَرْدٌ إذا وَرَدَ البحيرةَ شارباً
وردَ الفراتَ زئيرهُ والنّيلا

متخضّبٌ بدمِ الفوارسِ لابسٌ
في غِيلهِ مِنْ لِبْدَتَيْهِ غِيلا

ما قُوبِلَتْ عيناه إلا ظُنّتا
تحتَ الدُّجى نارَ الفريقِ حُلولا

في وَحْدَةِ الرُّهبانِ إلا أنه
لا يعرف التحريمَ والتحليلا

يطأُ الثّرى مترفّقاً مِنْ تيهِهِ
فكأنه آسٍ يجُسُّ عليلا

ورَدَتْ مُعفِرةٌ الى يافوخِهِ
حتى تَصيرَ لرأسِهِ إكليلا

ودارسُ هذا الشعر يحار فى قوته المتتابعة ،وفى خياله الجرىء ، وفى نظرات الشاعر المستوعبة ، وفى خبرته المتنوّعـة التى تجانس بين ما يصف وبين شتى تجاريبه . وانى كطبيب أعجب جدّ الاعجاب بقول أبي الطيب :

يطأ الثرى مترفّقاً مِن تيهِهِ
فكأنّه آسٍ يجسُّ عليلاَ !

وكأنما أبو الطيب تمرّ أمامه صُوَر الحياة المتنوّعة مرّاً سريعاً كمرور السينما فيخطف من لمحاتها ما يخطف حسب مناسباته ويمزجه بأوصافه الجبّارة مزجَ الحاذق الخبير ، فيحيرنا باتساع آفاقه وبتعمق نظراته وبكل مزايا العظمة الفذّة للشاعر العبقرى .

وإن نعجب فلنعجب أولاً وأخيراً بوصفه المدهش لنوبة الملاريا التى أصابته ، وهو وصفٌ شعرى من أرقى طراز يمتزج بالفلسفة العاطفية أبرعَ امتزاجٍ . أليس هو القائل :

وزائرتى كأنّ بها حياءً فليس تزور الا فى الظّلامِ
بذلتُ لها المطارفَ والحشايا فعافتها وباتتْ فى عظامى

يَضيقُ الجلدُ عن نفسي وعنها ... فتوسعُهُ بأنواعِ السَّقامِ
كأنَّ الصبحَ يَطردُها فتجري ... مدامعُها بأربعةٍ سجامِ
أُراقبُ وقتَها من غير شوقٍ ... مراقبةَ المشوقِ المستهامِ
ويَصدُقُ وعدُها والصدقُ شرٌّ ... اذا ألقاكَ في الكُرَبِ العِظامِ
أبنتَ الدهر عندي كلُّ بنتٍ ... فكيف وصلتِ أنتِ من الزّحامِ؟!
جَرَحْتِ مجرّحاً لم يَبْقَ فيه ... مكانٌ للسيوفِ ولا السهامِ !

* * *

وصفوة القول : ان شعر المتنبي في الطبيعة لا يمكن انكاره فهو يبلغ زهاء ثلثمائة بيت ، ومعظمهُ شعرٌ صادقٌ وأقلّهُ نظمٌ صناعيٌّ تقليديٌّ ، وجميعه عظيم الدلالة في لجوئه الى الامّ الطبيعة لتسعفه بأروع تشابيهه واستعاراته . فالطابعُ الغالبُ على شعر الطبيعة عنده هو الطابعُ الوصفيُّ ، وهو في معظم الأحوال يتزاوج وفلسفة الحياة فاذا كان خالصاً لم يكن دون الشعر الوصفي الخالص لشعراء الطبيعة المعدودين كالبحتري وابن الرومي وابن خفاجة وابن حمديس ، وإن انفرد المتنبي وابن الرومي بالسامة المعنوية . ومن الإنصاف أن يقال إنه بالرغم من اشتغال المتنبي بمطالب الحياة العملية وكفاحها المستمر وانصرافه الى المجد والسؤدد فلم يكن كلّ هذا بالذي يصرفه

Obeikandl.com

عن جاذبية الطبيعة ، ولئن أقل فى هذا الباب فان شعره يمتاز بتركيز ساحر تقوم فيه الإشارة الفنية القوية مقام الأبيات لغيره . فهو غنى كل الغنى بجوهر شعره ، وإن لم نظفر منه نسبياً إلا بالقليل من فرائد شعر الطبيعة .

يمتاز شعر المتنبي بحيوية منقطعة النظير فى طابعها الخاص ، طابع الشخصية الحكيمة الجبّارة التى أملته ، وقد استفاد من جميع تجاربه فى حياته — من طفولته الى كهولته — وكان لكل ذلك الأثر الواضح فى شعره ، ولكنه لم يكن أسيراً لعامل واحد منها ، اللهمّ الا اذا عددنا تطلعه الدائم الى نهايات المجد هو ذلك العامل .

كان المتنبي قوىّ الرجولة ، وهذه الرجولة الأصيلة فيه بل ذلك التألّه الذى نستشفه من مثل قوله :

يقولون لى : ما انتَ فى كل بلدةٍ

وما تبتغى ؟ ما ابتغى جَلّ أن يُسمَى !

هو الذى أبعد معظم شعره عن الليونة والرقة ، فهذه ظاهرة ذاتية وليست صورةً من تفاعل البيئة أو حياته الخاصة

يقول أبو الطيب فى الشعر وصنعته :

إنّ بعضاً من القريض هذاءٌ
ليس شيئاً ، وبعضه أحكام
منهُ ما يجلبُ البراعةَ والفضـ
ـلَ ، ومنه ما يجلبُ البرسامُ ؟

وقد يسرّ كثيرون من المتأدبين بالشعر المائع لحلاوة موسيقاه ، ومنهم مَنْ يتخيل أن شعر الطبيعة يجب أن لا يعدو ذلك ، أمّا الأدباء الناضجون الذين تخدعهم الظواهر المرهفة البرّاقة فيلتمسون عند المتنبي العصارة الشعرية الناضجة ، والخلاصة الحلوة المرة ، غذاءً للأرواح والأفهام ، وهم يستلهمونه سرّ الطبيعة الجبّارة اذا لم يسعفهم معظم الشعراء الآخرين بأكثر من أوصاف مليحة لظواهرها . وهم بعد كل هذا يطمئنون كل الاطمئنان الى وضع المتنبي في ذروة المجد الشعري ، ويعدّون في إعلان صادق ديوانه الخالد انجيلاً للأدباء .

# فهرس


| | صفحة | | صفحة |
|---|---|---|---|
| المتنبي ابن الطبيعة | ٣ | فلسفة الحياة والتعابير | ٥ |
| قوة المتنبي الفنية | ٤ | أدب القوة والعبرمانى | ٦ |
| تأثير البادية | ٥ | الطبيعة في شعر صباه | ٧ |

| صفحة | | صفحة | |
|---|---|---|---|
| حبه التركيز والمسامحة | ٨ | وصفه النيروز | ٤٠ |
| أشابيهه الطبيعية | ٩ | وصفه الربيع | ٤١ |
| الحياة والطبيعة توأمان | ٣١ | وصفه كفرديس | ٤٢ |
| ديباجة المتنبي | ٣٣ | أرجوزته في وصف الثلج وتعذر المرعى | ٤٤ |
| نظراته المتنوعة | ٣٤ | | |
| وصفه جبال لبنان | ٣٥ | وصفه الجواد | ٤٦ |
| وصفه بحيرة طبرية | ٣٦ | « الاسد | ٤٧ |
| مزج الوصف بالفلسفة والعاطفة | ٣٧ | « الملاريا | ٤٨ |
| وصفه شعب بوان | ٣٩ | حيوية شعر المتنبي | ٥٠ |


## تصويبات

| الصفحة | السطر | الخطأ | الصواب |
|---|---|---|---|
| ٦ | ٩ | لانها | لأنها |
| ٨ | ١ | سنة | سنه |
| ٩ | ١٧ | رصفا | وصفا |
| ١٤ | ١٠ | سخطان | قحطان |
| ٢١ | ١٢ | ادُم | أُدْم |
| ٢٣ | ١٣ | سماها | ساها |
| ٢٩ | ٩ | الفلواتُ | الفلواتِ |
| ٣٣ | ١٧ | لاستغلال ومنها | لاستغلال الطبيعة ومنها |
| ٣٣ | ٢ | ديباحة | ديباجة |

obeikandi.com